
قلب الليل

١

قلت وأنا أتفحصه باهتمام ومودة :
ـ انى أتذكرك جيدا ٠
انحنى قليلا فوق مكتبى وأحد بصره الغائم ٠ وضح لى من القرب ضعف بصره ، نظرته المتسولة ، ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور ، وقال بصوت خشن عالى النبرة يتجاهل قصر المسافة بين وجهينا وصغر حجم الحجرة الغارقة فى الهدوء :
ـ حقا ! ؟ ٠٠ لم تعد ذاكرتى أهلا للثقة ، ثم أن بصرى ضعيف ٠٠
ـ ولكن أيام خان جعفر لا يمكن أن تنسى ٠٠
ـ مرحبا ، اذن فأنت من أهل ذلك الحى !
قدمت نفسى داعيا اياه الى الجلوس وأنا أقول :
ـ لم نكن من جيل واحد ولكن ثمة أشياء لا تنسى ٠
فجلس وهو يقول :
ـ ولكنى أعتقد أننى تغيرت تغيرا كليا وأن الزمن وضع على وجهى قناعا قبيحا من صنعه هو لا من صنع والدى !
وقدم نفسه بفخار دون حاجة الى ذلك قائلا :
ـ الراوى ، جعفر الراوى ، جعفر ابراهيم سيد الراوى ٠٠

لم تخف على أسباب اعتزازه بالاسم ، وأكد ذلك التناقض الحاد بين منظره التعيس وبين لهجته المتعالية · قال :

ـ انك تعود بى الى ذكريات عزيزة ، أحياء خان جعفر والحسين المقدسة ، أيام الهناء والتجربة ··

ـ وكانت ثمة وقائع مثيرة وحكايات غريبة ··

فضحك عاليا · اهتز جسده الطويل النحيل حتى أشفقت على بدلته الرثة أن تتمزق ، ورفع لى وجهه ذا الجلد المدبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر رأسه الأبيض المتلبد ، وقال :

ـ نحن أهل ، ومن حقى أن أستبشر خيرا لقضيتى العادلة !

فسألته مؤجلا الخصام :

ـ تشرب قهوة ؟

فقال بلا أدنى تردد وبجرأة :

ـ لنبدأ بسندوتش فول ثم تجىء القهوة بعد ذلك ··

وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتى ساورنى الأسى ، واستقرت رائحته فى أنفى خليطا من العرق والتبغ والتراب · ولما أكل وشرب اعتدل فى جلسته وقال :

ـ أشكرك ، لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك ، لا شك أنك اطلعت على طلبى بحكم وظيفتك ، فما رأيك ؟

فقلت بأسف :

ـ لا فائدة ، نظام الوقف لا يسمح بشىء من ذلك ··

ـ ولكن الحق واضح مثل الشمس ·

ـ الوقف واضح أيضا ··

ـ كان القانون ضمن ثقافتى ولكنى أعتقد أن كل شىء يتغير ··

ـ الا الوقف فانه حتى اليوم لم يتغير ··

فهدر صوته الخشن صائحا :

ـ لن يضيع حقى أبدا، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف·

ولما وجد منى هدوءا باسما تراجع الى الهدوء وقال :

ـ دعنى أقابل المدير العام ·

فقلت بلطف :

ـ المسألة واضحة جدا ، فوقف الراوى أكبر وقف خيرى فى الوزارة ، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الامام الحسين بالاضافة الى جمعيات خيرية ومدارس وتكايا وأسبلة ، والوقف الخيرى لا يمكن أن يئول الى شخص بحال من الأحوال ·

قاطعنى بحدة :

ـ ولكننى حفيد الراوى ، ووريثه الوحيد ، وانى فى مسيس الحاجة الى مليم على حين أن الامام الحسين غنى بجنات النعيم ·

ـ ولكنه الوقف !

ـ سأقيم دعوى ·

ـ لا فائدة من ذلك ·

ـ سأستشير محاميا شرعيا ، ولكن تلزمنى استشارة مجانية لأن النقود كائنات مجهولة فى عالمى ··

ـ لى أكثر من صديق بين المحامين الشرعيين ،

وممكن أن أدبر لقاء بينك وبين أحدهم ، ولكن لا تضيع وقتك جريا وراء أمل لا يمكن أن يتحقق ٠
ـ انك تعاملنى كطفل !
ـ معاذ الله ولكننى أذكرك بحقيقة لا جدال فيها ٠
ـ ولكننى حفيد الراوى ، واثبات ذلك يسير على ٠٠
ـ المهم أن تركة الراوى أصبحت وقفا خيريا ٠٠
ـ وهل من العدل أن أترك أنا للتسول ٠٠ ؟
ـ المتفق عليه فى الادارة وهو المتبع فى مثل ظرفك أن تقدم طلبا بالتماس صرف اعانة شهرية من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك ٠٠
جعل يردد : اعانة شهرية ! ٠٠ يا لهم من مجانين ظالمين ٠
وواصل قائلا :
ـ صاحب الوقف يلتمس احسانا ! ٠٠ هذا جنون ٠٠ وما مقدار الاعانة ؟
ضمت لحظات مترددا ثم قلت :
ـ قد تصل الى خمسة جنيهات ٠٠ وقد تزيد ٠٠
قهقه ساخرا كاشفا عن أسنان مثرمة سوداء ، ثم قال :
ـ صدقنى ، سأكافح ، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجن ، فلتكن معركة ، لن أكف عن القتال حتى أنال حقى الكامل من تركة جدى اللعين !
فلم أتمالك من الابتسام وقلت :
ـ ليرحمه الله جزاء ما قدم للخير ٠
فضرب حافة مكتبى بقبضته المعروقة وقال :

ـ لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد ٠٠
ـ ولماذا نسيك ؟
قبض على ذقنه دون أن يجيب ٠ شعرت بأن الزوبعة ستنقشع عاجلا أو آجلا ، وأن التماس الاعانة سيكتب ٠ ما أكثر المتسولين عندنا من حفدة الباشوات والأمراء والملوك ٠ ويقينى أنه لا يجحد أحد ذريته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر ؟ ! ٠
ومد بصره الضعيف الى لا شىء وراح يقول :
ـ وقف خيرى ، حرمان من الميراث ، هكذا فعله دآئما مزيج من الخير والشر ، ها هو يمارس سلطته ميتا كما مارسها حيا ، وها أنا أكافح فى موته كما كافحت فى حياته ٠٠ وحتى الموت ٠٠

٢

توثقت العلاقة بينى وبين جعفـر الراوى • كان فى وحدته على استعداد حاد للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة ، وكان يشجعنى على المغامرة شعورى بأنها عابرة سريعة الزوال ، فشخصيته المضطربة لا توحى بالاستقرار والدوام ، وارضاؤها يسـير هين • ثمة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتنى اليه • هناك على سبيل المثـال الذكريات القديمـة وافتتـانى ببيت الراوى وحكاياته ، وما تردد يوما عن مغـامرات جعفـر وجنونه • وهناك أيضا ميلى اليه رغم فظاعة منظره ورثائى له فى خاتمته التعيسة • وكان ذا قامة مديدة ، ولولا البؤس ـ وربما الأمراض؟ ـ لنضحت شيخوخته بروعة وجلال •

سألته بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع فى شارع محمد على :

ـ كيف تعيش يا جعفر ؟

ـ أتخبط فى الشوارع نهارا وحتى منتصف الليل ••

ـ وأين تسكن ؟

ـ أبيت فى الخرابة ••

ـ الخرابة ؟ !

ـ هى ملكى بوضع اليد ، وهى ما تبقت من بيت جدى القديم !

وكنت قد انقطعت عن الحى العتيق منذ عهد بعيد فلم أعرف أن البيت تحول الى خرابة •

ـ أليس لك أهل ؟

ـ لعلهم يملئون الأرض ••

ابتسمت • فقال جادا :

ـ لى أبناء قضاة وأبناء مجرمون ••

ـ أتعنى ما تقول ؟

ـ رغم ذلك فانى وحيد ••

ـ يا لها من طريقة فى الحديث ••

ـ اسمع ، رد الى الوقف وأعدك بأن ترانى محاطا بالأبناء والأحفـاد ، والا فستجدنى دائمـا وحيـدا طريدا ••

ـ أراك تحب الألغاز ••

فضحك قائلا :

ـ انى أحب اللقمة الحلوة والوقف ، كما أحب لعن الواقفين ••

ـ أليس لك مورد رزق من أى نوع فى شيخوختك ؟

ـ لى أصدقاء قدماء ، أعترض أحـدهم فيمد يده بالسـلام ويدس فى يدى ما يجود به ، اننى أتمرغ فى التراب ولكننى هابط فى الأصل من السماء •

قلت بأسى :

ـ حياة غير لائقة ، اكتب الالتماس فورا ••

ـ هى الحياة الانسانية الأصيلة ، جربها بشجاعة

ان استطعت ، اقتحم الأبواب بجرأة ، لا تتمسكن فكل ما تحتاجه هو حق لك ، هذه الدنيا ملك للانسان ، لكل انسان ، عليك أن تتخلى عن عاداتك السخيفة ، هذا كل ما هنالك ٠

ــ ومع ذلك فانك تتمنى أن تسترد تركة جدك ؟

فقهقه قائلا :

ــ لا تحاسبني على التناقض ، انى حزمة من المتناقضات ، ولا تنس أنني عجوز ، ولا تنس أنني أخوض معركة مع جدى منذ قديم ٠

ــ أود أن أعرف لماذا حرمك ميراثك ؟

ــ هذه هى المعركة ، لا تتعجل ، لست بسيطا كما يتراءى لك ، كثيرون ينخدعون فى ، حتى الصبية يجرون ورائى وأنا أتخبط فى الشوارع ، ماذا يظنون ؟ ، انى أحب الكلام ، ولما كنت وحيدا فانى أكلم نفسى ، ماذا يظنون ؟ ، لقد تقدم بى العمر ولما تكف الأسئلة عن مطاردتى ، صدقنى فاننى شخص غير عادى ، حتى فى الجبل كنت غير عادى ، ولا فى القصر ولا فى الخرابة ، وغم التصعلك والتسول فاننى أقف أمام الحياة مرفوع الرأس متحديا ، اذ أن الحياة لا تحترم الا من يستهين بها ٠٠٠

جعلت أتأمله باسما وهو يتحدى الوجود ببدلته المتهتكة وجلده المدبوغ ، ثم تمتمت :

ــ عفارم عليك !

ــ وليس الانسان وحده من تعاملت معه فلى صلات

عريقة مع الجماد والجن والعفاريت فضلا عن عناصر الحضارة الجوهرية ٠

ثم غير نغمته فجأة وسألنى :

ــ هل وقع اختيارك على محام ثقة لنذهب اليه ؟

فقلت متوسلا :

ــ انس بالله هذه القضية الوهمية يا جعفر ٠

ــ ألست جعفر ابراهيم حفيد سيد الراوى ؟

ــ بلى ٠٠ ولكن لا توجد قضية على الاطلاق ٠٠

فصاح :

ــ اذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون ٠٠

ــ هذا أقرب الى الامكان من كسب القضية ، اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت ٠٠

فقال ضاحكا :

ــ انكم فى الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثم تمدون أيديكم الينا بالاحسان ٠٠

ــ اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت ٠٠

وغشانا الصمت دقائق ثم قال وكأنما يحادث نفسه :

ــ خمسة جنيهات ! ٠٠

ــ يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح ٠٠

ــ كلا ٠٠ ان المبلغ يكفى للغذاء والسجاير والكساء ٠٠ أما المأوى فكيف أستأجر مسكنا وأنا أملك قصرا ؟ ! ٠٠ لن أهجر الخرابة ٠٠

ــ اكتب الالتماس فى أقرب فرصة وأرسله الى الوزارة ٠٠

ـ لا داعى للعجلة ، دعنى أفكر ، قد أكتب الالتماس وقد أستشير محاميا ، ولا يبعد أن أواصل الحياة بلا التماس ولا محام ٠٠ لا داعى للعجلة ٠٠

ـ على أى حال فقد عرفت سبيلك ٠٠

فقال بحدة :

ـ لا سبيل للتفاهم بيننا ٠٠٠ فأنت ممن يخافون الحياة وأنا ممن يزدرونها ، وجميع ما ترتعد لمجرد تصوره قد عانيته ٠٠ جميع ما تسأل الله ألا يقع قد ذهبت اليه فوق قدمى ٠٠

ـ عظيم جدا يا جعفر ٠٠

ـ هل يعجبك كلامى ؟

ـ جدا ٠٠

ـ أتود أن تسمع المزيد منه ؟

ـ ثق من ذلك كل الثقة ٠٠

ـ لقد قدمت لى عشاء فاخرا ، وستقدم لى مساعدات هامة فى الأيام القادمة ، فضلا عن أننا أبناء حى واحد ، بنا الى مقهى ودود بالباب الأخضر ٠٠

وسرنا جنبا الى جنب نحو الحى العتيق حتى اخترقنا القبو الأثرى الى الباب الأخضر ٠ وجلسنا ندخن البورى ونشرب القهوة على حين جرى الحديث فى سكون الليل الطويل ٠٠

٣

هجعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل ٠ تعود فى تلك الساعة أفواج من الشحاذين الى أركانهم، ينطلق المجاذيب فى جنباتها ، يفوح البخور من زواياها ٠ لا غريب يطرقها ليلا الا رواد مقهى ودود القلائل ، وجميعهم من مدخنى البورى ، قال جعفر :

ـ دعنى أحدثك عن عهد الأسطورة ٠٠

ـ لعلك تقصد الطفولة ٠

ـ انى أعنى ما أقول فلا تقاطعنى ، لا توجد طفولة ، ولكن يوجد حلم وأسطورة ، عهد الحلم والأسطورة ، وهو يفرض ذاته فى عذوبة فائقة ، وربما زائفة ، بسبب من معاناة الحاضر الأليمة عادة ، وهو دوى ضخم فى وجدانى وعندما أحلله لا أجده شيئا ، وهذا ما يؤكد طبيعته الأسطورية ، حسبك أن تعرف أن قطبيه الأساسيين ـ أبى وأمى ـ لا أكاد أعرف عنهما شيئا ذا بال ٠

ـ هل غادراك وأنت طفل ؟

ـ لا أذكر أبى بتاتا ، لا صورة له فى ذاكرتى ولم يخلف صورة فوتوغرافية لتذكرنى به ، وقد فارق الدنيا قبل أن ينجب غيرى ، ولا يوجد سوى موقف

واحد يشير اليه اشارة غامضة ، موقفه يوم الاحتفال بالمحمل وراء نافذة تطل على مرجوش ، وأنا ممتط قفاه وأنظر من فوق منكبه الى الجموع ، والى رأس المحمل المذهب الذى يتبختر فى مستوى النافذة ، موقف يدل على العطف والحنان أليس كذلك ؟ ، والمحمل معلم من معالم الأسطورة أما الجموع فحقيقة من نوع خاص ، بعثت فى نفسى ذات يوم فى مكتبى بميدان باب الخلق فهتفت فى وجه « سعد كبير » وقلت ٠٠

قاطعته :

ـ نحن الآن فى الأسطورة فلا تجاوز حدودها !

ـ دعنى أتكلم بحرية فانى أكره القيود !

ـ ولكن الحكاية ستذروها رياح الخواطر فأضل بين شذراتها !

قهقه قائلا :

ـ ألا تسمح لى بأن أعبث بالزمن كما عبث بى ؟! ، حسن ، لنعد الى الأسطورة ، الى الجن الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطيفية والأحلام الحقيقية ، لنعد الى الأسطورة ، قلت لك اننى لا أتذكر أبى ولكننى لا أنسى يد أمى ٠

ـ يد أمك ؟

ـ صبرا ، لقد مات أبى، كيف ولم ؟ لا أدرى ، ولكنه مات فى ريعان الشباب كما علمت فيما بعد ، كنت فى الخامسة وربما دون ذلك ، حتى بيت مرجوش لا أتذكره ، ثمة حجرة يصعد اليها من الدهليز بسلم ذى درجتين ، وفراش مرتفع يرقى اليه بسلم خشبى

يغرى باللعب ، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتى لا تمتد لها يدى ، وقطط مدللة ، وجندرة ، وكرار مظلم تسكنه أنواع شتى من الجن ، وفأر أسود ، ومبخرة ، وقلة مغروسة فى صينية يسبح الليمون فى مائها ، وكانون وزكائب فحم ، ودجاج وديك مزهو فخور ، مات أبى لا أدرى كيف ، ولا أدرى ماذا كان يعمل ، ولكن بوسعى أن أحدثك عن الموت نفسه فانى به خبير، انى من صناعه ، حق لى يوما أن أقول اننى واهب الحياة ، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم ألسنته كلمات السماء تفتح أبواب غامضة تتسلل منها الشياطين ، بل يجىء ابليس نفسه فىموكبه النارى يحف به القضاة ورجال الشرطة والسجانون ، عند ذاك يغير جعفر الراوى اسمه ولقبه وجلده ٠٠

قلت برجاء :

ـ ماذا عن موت أبيك ؟

ـ سامحك الله ، انك خانق الالهام ، تود أن تعرف كيف مات أبى كما لو كان أباك أنت ، ماذا أعرف عن ذلك ؟ ، أستيقظ فى الظلام فأنتبه الى أن أمى تحملنى بين ذراعيها وتغادر بيتنا الى بيت جارتنا ، لا شك أن النوم غلبنى ، ولما أستيقظ فى الصباح أجدنى فى مكان غريب فأبكى ، تجىء الجارة بطعام فأسأل عن أمى ٠

ـ أمك فى مشوار وستجىء فى الحال ٠٠ تناول طعامك ٠

وأتناول الطعام رغم ضيقى ، وأسمع طوال الوقت صوواتا ، ولكن الصوات والزغاريد أصوات مألوفة

في حارتنا ، وأرجع الى بيتنا في نفس اليوم ليلا أو في اليوم التالي فألقى جوا غريبا وكئيبا يفشى سرا أليما لا أعرف كنهه ولكن تصيبني منه وحشة وقلق مبهم ، ها هي أمي ، ما أشد تغيرها ، جلبابها أسود ، وجهها مريض شاحب ، نظرتها خابية وذابلة ، فقد البيت مناخه النقي ومرحه الأصيل ٠

ـ ما لك يا أمه ؟

ـ كل شيء طيب ، العب ٠٠

ـ أين أبي ؟

ودارت وجهها عني وهي تقول :

ـ سافر ٠٠ العب ٠٠ عندك السطح ولا تكثر من الأسئلة ٠٠

انني أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة اكتراث ، أمي تهرب مني ، تهرب بعينيها ان لم تهرب بجسمها كله ، وهي تبكي من وراء ظهري ، أبي لا يعود من السفر ، ثم انني لست جاهلا كل الجهل ، بلغتني أشياء عن الله ٠٠٠ الشيطان ٠٠٠ الجن ٠٠٠ الجنة والنار ٠٠٠ حتى الموت بلغتني عنه أشياء منذرة بغير السرور ، متى يعود أبي من سفره ، ومتى يرجع وجه أمي الى صفائه المعهود ، وكم دام انتظاري القلق لأبي، ومتى أدركني اليأس منه ، وكيف أنسيته وشغلت عنه ، وكيف واصلت حياتي بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن ؟ نسيت ذلك كله ولا سبيل الى تذكره وتسجيله ، أما يد أمي فلا يمكن أن تنسى ٠٠

ـ ذكرت مرارا يد أمك ؟

ـ تمسك بي أو أمسك بها ونسير معا في الحواري والأسواق ٠٠

ـ للتسوق أم للنزهة ؟

كنت بدأت آنس الى روحه المتقدة وراء الأطلال والخرائب ، وبدا هو سعيدا ممتنا للعشاء والبوري وظفره بمستمع يتابع ما يقول باهتمام ، قال :

ـ أحيانا أحاول أن أتذكر صورة أمي فلا أعثر على شيء ذي بال ، ما طولها على سبيل المثال ؟ كنت بطبيعة الحال أقصر منها جدا ودائما أنظر الى فوق حين أحدثها ولكن ذلك لا يدل على شيء ولا يحدد طولها ، ولا فكرة لي عن وزنها كذلك ، ولا لون عينيها ، ولا لونها نفسه ، ثمة صورة عامة غير محددة الخطوط ، واشارات ونبرات غير مسموعة ، وعواطف جياشة ، وابتسامات وضحكات وزجرات ، أشبه بأطياف الأحلام ، غير أنني أستطيع أن أقرر بأنها كانت جميلة ، لولا جمالها لما حدثت المأساة ، كما أنني أذكر قول جارتنا لمناسبة منسية « ولد يا جعفر يا ابن الست الجميلة » ، ولكنها لم تبق في الحياة كثيرا حتى تمكنني من حفظها في قلبي من الدمار ، يدها فقط التي بقيت معي ؛ أحس حتى الساعة مسها وضغطها وشدها وانسيابها ، وهي تمضي بي من مكان الى مكان ، خلال طرقات مسقوفة ومكشوفة ، وتيارات من النساء والرجال والحمير والعربات ، أمام الدكاكين وفي الأضرحة والتكايا ، وعند مجالس المجاذيب وقراء الغيب ، وباعة الحلوى واللعب ، تقودني في جلبابي

وعلى رأسى طاقية مزركشة تتدلى من مقدمها تعويذة كالحلية ، وكانت أحاديثها متنوعة ذات صيغ شعرية تخاطب بها الكائنات جميعا كلا بلغته الخاصة به، فهى تخاطب الله لى سمائه ﷻ وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء فى أضرحتهم ، حتى الجن والطير والجماد والموتى ، وأخيرا ذلك الحديث المتقطع بالتنهدات الذى تناجى به الحظ الأسود ، كانت الدنيا حية واعية تتلقى الكلام وترده ، وتشارك بارادتها الخفية فى حياتنا اليومية ، لا فرق فى ذلك بين ملاك وباب ضريح ، بين الهدهد وبوابات القاهرة القديمة ، حتى الجن كانت تلين لكلماتها السحرية ، وبفضل ذلك نجوت من مهالك لا حصر لها ··

ولما وجدته جادا لم أتمالك من الضحك فسألنى دون أن يخرج من جديته :

ـ علام تضحك ؟

فقلت بلهجة المعتذر :

ـ انك تروى حلما ولكنك الآن تعرف تفسيره وتأويله ··

فقال بكبرياء :

ـ لا تتخيل أنك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت ··

ـ هكذا ؟

ـ انى بحر ولا فخر !

ـ ولكنك لا تفرق بين الحقيقة والخرافة ·

ـ لا توجد خرافات وحقائق ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعية الجهاز

الذى ندركها به، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعة والرياضة والتاريخ ، ولكل جهازه الروحى ، واليك مثالا حيا ، فقد أخذتنى أمى ذات يوم لزيارة قبر أبى بين قبور الفقراء المكشوفة فى العراء ، ثم راحت تناجيه قائلة : « زوجتك وابنك يحييانك ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا أحب الناس وأكرمهم ، انى أشكو اليك وحدتى وهمى فادع لنا ربك يا حبيب » · وسرعان ما ألصقت أذنى بجدار القبر فسمعت تنهدة وكلاما أخبرت به أمى فقالت لى : « مبارك أنت حتى يوم الدين » ··

فسألته باشفاق :

ـ ماذا قال لك أبوك ؟

ـ انك غير مؤهل لتصديقى فلن أجيبك !

ساورنى شعور بأنه يغطى ماء الدعابة بسطح من الجدية الخشنة أو أنه يريد احاطة أسطورته بجو أسطورى يتوافق معها ليرضى حنين قلبه ، فتمتمت مذعنا :

ـ فوق كل ذى علم عليم ·

ـ كانت دنيانا دنيا حية ، تنبض بالرغبات والعواطف والأحلام ، فيها الجد والمزاح ، فيها الفرح والأسى ، ينتظمهم جميعا ـ الانس والجن والحيوان والجماد ـ لحن التفاهم والتعامل ··

ـ ولكنك تدرك ذلك كله ؟

ـ كل الادراك ، بشغف واصرار ··

ـ ألم يطوقك الخوف ؟

ـ أحيانا ولكنى سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع والهجوم وصرت سيد الدنيا ، كنت ذات مساء ألاعب الليمون فى صينية القلل على حافة النافذة فما أدرى الا ورأس كائن يتطلع الى من موضع فى مستوى النافذة من الطريق ، عيناه تضيئان فى الظلام وقدماه منغرستان فى الأرض ، فتراجعت مضطربا حتى استلقيت على ظهرى فوق أرض الحجرة ومزقت صرختى سكون الليل ، وقد علمت فيما بعد أن لقاء الانسى بالجنى لا يجوز أن يتم على ذلك النحو ، وقالت لى أمى انه آن لى أن أحفظ الصمدية ، أما عفاريت بيتنا ـ وهم يقيمون فى الكرار ـ فكانوا يميلون بطبعهم للدعابة ، ولايصدر عنهم أذى حقيقى ، يخلطون المش بالعسل ، أو يخفون السمن لاستعمالهم الشخصى ، أو يطفئون المصباح بيد الماشى ليلا ، وأسوأ مزاحهم تحويل الأحلام الى كوابيس ..

ـ هل تستطيع أن تعطينى فكرة عن صورة العفريت؟

ـ كلا ، انك غير مؤهل للتصديق ، ثم ان الجن تختفى من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة وسرعان ما ينساها تماما ، بل انه ينكرها ، رغم أنه يلقاها كل يوم فى صور جديدة من البشر ، وفى الحال الأخيرة يصدر عنها شر حقيقى وأذى كبير ، ولكنك تصر على أن الجن خرافة ليس الا ، ومن ناحية أخرى فقد شاء لى القدر أن أرى النور المبارك فى ليلة القدر وأنا جالس على حجر أمى أتطلع الى السماء ! .. فتحت نافذة وأطل منها نور باهر طمس أضواء النجوم ..

فقلت ضاحكا :

ـ يقال انه لا يرى نور ليلة القدر الا من كتبت له السعادة من البشر .

فقهقه طويلا ثم قال :

ـ يبدو أنك غلبتنى هذه المرة ، ولكن الى حين فقط ، حقا انى أبلغ مثال للبؤس ولكن العبرة بالخواتيم ، والخاتمة ما زالت مجهولة ، وقد أجد الجواب فى الجنة، ولى مع الجنة تاريخ طويل ، كانت أمى تحدثنى عنها حديث الخبير ، فأحببتها حبا لا مزيد عليه ، خلبتنى وسلبت لبى، فصارت حلمى الباهر ، جنة السحر حيث يرى الله بالعين ويسمع بالأذن ويخاطب باللسان ، فى حديقة الأنهار والألحان والشباب الدائم ، ولكن لنرجع الى حديث أمى ، كيف كانت تعيش بعد وفاة أبى ؟ ، خطر لى هذا السؤال فيما بعد ولم يسعفنى الجواب ، كنا نغادر بيتنا كل يوم ، نزور أضرحة ودكاكين ونبتاع ما يلزمنا ثم نرجع الى بيتنا لتنهمك هى فى الواجبات المنزلية وآوى أنا الى جنتى الأرضية بين القطط والدجاج ، وقد تزورنا جارتنا ، وكان لا أهل لى ولا أهل لها ، أكانت تملك مالا ؟ .. حتى اليوم لم أعرف وجه الحقيقة فى ذلك ، وقد ظلت ترتدى السواد عقب وفاة أبى ، وكانت تبكى أحيانا اذا خلت الى نفسها وأكثر من مرة ضبطتها وهى تبكى ، وأدركت سر العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبى ، وسألتها :

ـ ألست تقولين ان أبى يقيم بين يدى الله ؟

فأجابت بالايجاب فسألتها :

ـ اذن فلماذا تبكين ؟
فقالت :
ـ انه لخطأ يا جعفر ولكن الدموع تفيض رغم ارادة الانسان ٠
لم يقعدنى ذلك عن مغامراتى اليومية فأمضى فى البهجة ، أجمع البيض ، أطارد الفئران ، أتحدى العفاريت ، ولبثت المغامرة السعيدة عاما عقب وفاة أبى ، وأخذت تجذبنى حكايات الرباب فى المقهى تحت النافذة ، تبعتها باهتمام على قدر استيعابى لها ، وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصب لأبطالها ، ومن نفس النافذة شاهدت معارك الفتوات فى الزفاف ، فأعجبت بالفتوات كاعجابى بالجن ، وحلمت طويلا بأن أكون فتوة ان أعجزنى أن أكون عفريتا ٠٠
سألته :
ـ ألم يتحقق لك حلم من أحلام الطفولة ؟
ـ لا تسخر منى وانتظر ، أريد أن أحدثك عن الحب فى عهد الأسطورة ٠
ـ ولكن عهد الأسطورة ليس بعهد الحب ٠٠
ـ ولكن الحب بدأ عندى من سن السادسة ، كنت أحب الغوص وسط البنات فى ليالى رمضان ، والعلقة الوحيدة الجادة التى أصابتنى من يد أمى كانت بسبب الحب ، اذ أغويت بنتا تماثلنى فى السن فأخذتها الى سحارة وأنزلت الغطاء علينا ، ولكن لم يدم لى الحب طويلا فسرعان ما بوغت برفع الغطاء فرفعت وجهى فزعا فرأيت وجه أمى يحملق فى وضفيرتها تسقط فوق

رأسى ، وعلى فكرة كانت ضفيرتها طويلة جدا وكنت ألعب بها ما وجدت الى ذلك سبيلا فأحلها وأعقدها وأدورها كحبل ، لا شك أن أمى كانت جميلة ، ولولا جمالها ما نشأت المأساة أصلا ٠
ـ أعطنى فكرة عن حب الطفولة ٠٠
وهو يضحك :
ـ انه يبدو عبثا ضائعا ولكنى أذكر أنه صخب بانفعالات حادة قاربت السكر ٠٠
ـ ذاك شذوذ !
ـ لست تربويا على أى حال ، وبوسعى أن أؤكد لك أن الجنس لم يكن عنصرا طاغيا فى حياتى ولكنه لعب دورا حاسما فى حينه ، أما فى الطفولة فقد أسهم فى نطاقه الضيق فى تأليف الأسطورة ، غير أن الأسطورة تعرضت لضربة قاضية لم تكن فى الحسبان ، فقد استيقظت ذات صباح وحدى دون أن توقظنى أمى كالعادة ٠ أدركت أننى استيقظت وحدى عندما وجدتها مستغرقة فى النوم ، راقدة على وجهها ، وسرنى جدا أن أوقظها ولو مرة فى حياتى الصغيرة ، قربت فمى من أذنها وناديتها ، مرة ومرة وهى لا تستجيب ، حركتها بلطف مكررا النداء ، ارتفع صوتى واشتد تحريكى لها ولا مجيب ، وأصررت على ايقاظها ، وتماديت فى اصرارى حتى ملأ صوتى الحجرة بلا أدنى نتيجة ، ويئست تماما فانزلقت من الفراش وغادرت الحجرة ، وتناولت من فوق الكنصول رمانة وصعدت الى السطح وأنا أقشرها وأقضم حباتها الكهرمانية ثم أتفل حثالتها

للدجاج ، ورأيت جارتنا فجرنا الحديث الى الحال التى تركت عليها أمى ، وجعلت تحقق معى ثم أمرتنى أن أفتح لها الباب ، وهرولت الجارة الى أمى وانكبت فوقها وأنا واقف عند الباب ، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت « يا خبر أسود يا أم جعفر » ، ثم أقبلت نحوى فرفعتنى الى صدرها ومضت به الى مسكنها ، وانقبض قلبى لذلك التصرف ، وتذكرت به تصرفا مشابها يوم اختفى أبى الى الأبد ، ومضيت أصرخ « أمى ··· أريد أمى ··· » ، وقضيت فى بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيام عهد الأسطورة ، وفى مساء اليوم الثانى طيبت الجارة خاطرى وقالت لى :

ــ لا تحزن يا جعفر فربك رحمن رحيم ·

فقلت يائسا :

ــ أنا فاهم ، أمى ذهبت الى أبى ··

فدمعت عينا المرأة وتمتمت :

ــ ربنا معك ، هو الأب والأم ، هو كل شىء ··

وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بمسواك :

ــ يجب عمل شىء ، ولو باللجوء للحكومة ··

فقالت المرأة :

ــ حتى الحجر يلين !

ومضت أيام وأنا أعيش ضائعا ذاهلا حتى أقبلت على الجارة تقول متهللة :

ــ يا حبيبى ، أبشر ، أمر ربنا بالرحمة ، ستذهب الى جدك !

لم أفهم شيئا ·

كنت أسمع الكلمة لأول مرة ·

٤

سألته بدهشة :

ــ لأول مرة ؟

ــ لأول مرة ·

ــ لم يجر له ذكر فى حياة أمك ؟

ــ مطلقا ، علما بأنه كان فى نفس الحى يقيم ··

ــ ولم أخفت أمك عنك أمره ؟

ــ ربما لحنقها عليه ، على أى حال أفهمتنى جارتنا أنه جدى ، أنه أبو أبى ، ولم يكن البيت بعيدا عن مرجوش ، ولا كان غريبا على فطالما سرت تحت سوره العالى ونحن ــ أنا وأمى ــ فى طريقنا الى الحسين ، وأذكر أننى سألتها مرة عن هوية ذلك السور العالى الذى يقوم أمام قبو بيت القاضى كالجبل فقالت لى بعجلة : « انه السجن حيث يقضى المجرمون أعمارهم فى الظلام » ، ولم يكن معزولا عما حوله ، ففى الأحياء الشعبية تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شىء ولا من حديقته ، فقط سوره المطل على بيت المال ، وهو سور حجرى يمتد طولا وارتفاعا كأنه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة أما بابه فيفتح على عطفة جانبية ، ولما اجتزنا بوابته ثم أول

لقــاء بينى وبين حديقته فلم يكن لى عهــــد قبل ذلك بالحدائق ، ولا رأيت من عالم النبــات الا شجرة بلخ بميدان بيت القاضى وشجيرة صبار بالقرافة ، اقتحم أذنى تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان محملة متواثبة بأفرادها الصغيرة الملونة ، كما رأيت أسرابا من الحمام تحوم حــول برج قائم وراء تكعيبة العنب ، يطل على جدول ماء يشــق الحديقة بالعرض يقف فيه بستانى مغروســا حتى ثلث ســاقه وبيــده مقطف ، أما أنفى فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة حتى أثملــته ، وقد ذهلت حتى أوشكت أن أصرخ من الأعماق ، وسرت فى ممشى تتجاذبنى على الصــفين ألوان الأزهار والورود فى طريقى الى السلاملك ، وشد جارى عى يدى وهمس فى أذنى مشجعا :

ـ هذا هو بيتك الجديد يا جعفر ..

كنت فى حيرة شاملة ، وكان جدى يجلس على أريكة ذات مسند عال مطعم بالأرابيسك تتوسط السلاملك ، والظاهر أن جارى أنهى حديثا قصيرا مع جدى ثم قبل يده وذهب ، فوجدت نفسى وحيدا تحت بصره ، لما أفق من سحر العصافير والأزهار والجدول ، وفى أعماق قلبى أسى لم تهن نواجذه ، انه يجلس متربعا فى جلباب أبيض فضفاض متلفعا بشملة مزركشة مغطى الرأس بطاقية بيضاء ، طويل الوجه نحيــله ، قمحى اللون ذو نظرة هادئة مستقرة ، جبهته عالية بصورة بارزة وأنفه طويل شامخ ، أما لحيته فبيضاء مســدلة على الرقبة وتلامس أعلى الصدر ، تبادلنا نظرة فلم أقرأ

فى عينيه ما يخيف وتبدى لى على قمة عمر طويل وآية فى النبل والوقار ومالكا جديرا بالحديقة الفاتنة .

وقفت غير بعيد وغير قريب فى جلبابى المقلم وطاقيتى المزركشة حاملة التعويذة أنتعل مركوبا ملونا وأحمل تحت ابطى لفافة تحوى ثيابى القليلة .

أطال الى النظر حتى اجتاحتنى رغبة فى الفرار . وكأنما قرأ ما فى صــدرى فابتسم ، وأشــار الى بالاقتراب .

قلت بحرارة :

ـ أريد أن أرجع الى أمى .

مد لى يده فاقتربت مادا يدى ، تصافحنا ، تملكتنى رعشة بكاء ولكننى تمالكت نفسى فلم أبك ، وسرى الى جسدى من ملمسه دفء ، قال برقة :

ـ أهلا بك .

أجلسنى الى جانبه وقال :

ـ أنت فى بيتك ، هل أعجبتك الحديقة ؟

فأحنيت رأسى بالايجاب .

ـ تكلم ، انى أحب الكلمات .

فغمغمت :

ـ نعم .

ـ أتعرف من أكون ؟

ـ جدى .

ـ ما معنى ذلك ؟

ـ أبو أبى ..

ـ تصدق ذلك ؟

ـ نعم ·
ـ هل تتذكر أباك ؟
ـ كان يحملنى لأرى المحمل ولكنى أتذكر أمى ··
وأجهشت فى البكاء فربت على ظهرى ثم سأل :
ـ ماذا تذكر من أبيك أيضا ؟
ـ زرت قبره ·
فنحى وجهه عنى قليلا ثم سأل :
ـ ما اسمك ؟
ـ جعفر ·
ـ ثم ماذا ؟
ـ جعفر ابراهيم ··
ـ ثم ماذا ؟
ـ جعفر ابراهيم !
ـ جعفر ابراهيم سيد الراوى ، أعد ··
ـ جعفر ابراهيم سيد الراوى ·
ـ من الذى خلقك ؟
ـ الله ·
ـ ومن نبيك ؟
ـ سيدنا محمد ·
ـ هل عرفت الصلاة ؟
ـ كلا ·
ـ ماذا تحفظ من القرآن ؟
ـ قل هو الله أحد ·
ـ ألم تحفظ الفاتحة ؟
ـ كلا ·

ـ ولم بدأت بقل هو الله أحد ؟
ـ لفائدتها فى اخضاع الجن ·
ـ هل تتعامل مع الجن ؟
ـ نعم ، كثيرون منهم يقيمون فى كرار بيتنا ، وهم يملئون مرجوش ليلا !
ـ هل رأيتهم بعينيك ؟
ـ كثيرا ·
ـ انك تكذب على جدك ·
ـ رأيتهم وتعاملت معهم ··
أجرى أصبعه على الخطوط المكونة لوجهى برقة وعناية فأنست اليه وتخلى أكثر الارتباك عنى · قال :
ـ لا تكذب يا جعفر فانى لا أحب الكذب ·
ـ ولكنى أقول الصدق ·
ـ انظر بعينيك ولا تتخيل ما لا وجود له ··
وسكت فسألته بدورى :
ـ يا جدى ··
فنظر الى مستطلعا فواصلت :
ـ لم لم تزرنا ؟
مد بصره الى الحديقة ثم قال :
ـ جدك متقدم فى السن كما ترى ·
ـ لم لم تدعنا الى بيتك ؟
بعد صمت آخر أجاب :
ـ رفض أبوك ذلك !
فسألته :
ـ هل سأقيم هنا دائما ؟

ـ انه بيتك يا جعفر :
ـ وألعب فى الحديقة ؟
ـ وستلعب فى الحديقة ولكن لن تكون حياتك لعبا خالصا ، انك فى السادسة ويجب أن تبدأ الحياة كذلك ..
وبدأت الحياة الجديدة .

★ ★ ★

وتوقف ملتفتا نحوى وهو يقول بحدة :
ـ ذلك هو جدى ، الراوى ، صاحب الوقف ، فأى نظام يحرمنى حقى الثابت ؟
فقلت برجاء :
ـ لنرجع الى حياتك الجديدة !
ـ لست تافها كما تتصور ، انى صاحب حق ، وذو ثقافة ، بوسعى أن أحدثك عن عيوب الديموقراطية ، وعيوب الشيوعية ...
ـ وستحدثنى عن ذلك فى سياق حكايتك ولكن ارجع الآن الى حياتك الجديدة .
فرفع منكبيه فى أسف وقال :
ـ يا للخسارة ، لقد ضعف بصرى ، وانى مهدد بفقده نهائيا ذات يوم ، ولم يبق من العمر الا أيام وما زالت البشرية تعنى العذاب والقلق ، ما زلنا نموت مخلفين وراءنا أملا قد تحقق ونسى ، وسبع خيبات تؤرقنا حتى الاحتضار ، وأنت تريدنى على أن أروى قصتى بالطريقة التى تعجبك أنت لا التى أرتاح اليها أنا ..
فقلت برجاء :

ـ النظام هو ما يلزمنا لنلم بقصتك فى الأيام القلائل الباقية من الحياة ..
ـ كانت الحياة الجديدة حلما بديعا ، نسيت الماضى كله ، نسى القلب الخئون أمى الراحلة التى لم أزر لها قبرا ، حلمت بها ذات ليلة ولما استيقظت شعرت بثقل قلبى وبكيت ، ولكن القلوب الصغيرة تتعزى بسرعة لا تتأتى الا لكبار الحكماء ، شغلت تماما بجدول الماء وأشجار الحناء والنخيل والليمون والأعناب والضفادع والعصافير والبلابل والحمام واليمام ، وازين خيالى بالفراش النحاسى المذهب والسجاجيد الفارسية والصوان الفخم والمرآة الكبيرة المصقولة والستائر الملونة والدواوين الوثيرة والشرفة المسقوفة بالللبلاب والحمام الكبير بأرضيته المعصرانى وخزان مياهه العجيب ، كنت أكتشف فى كل ركن شيئا جديدا وثمينا وأثرى باسم جديد ومنظر فتان ، على أن ذلك كله بهرنى دون أن يستحوذ على قلبى حقيقة فلم يراع فى اعداد القصر مطالب الأطفال ، لذلك لم يؤثر فى شىء مثلما أثر حمار البستانى ، وجدت فيه الصديق والملهاة وقضيت على ظهره الوقت الطويل قاطعا الممشى ذهابا وايابا وأنا أتفادى من الغصون الدانية ، وأعجبت كثيرا بالطلمبة والبئر والفسقية وتمثال الطاووس الذى يتوسطها فوق عامود مرمرى ، وتولت أمرى امرأة كهلة حنون نحاسية اللون تدعى بهجة سرعان ما وثقت بيننا العواطف الطيبة المتبادلة ، ومن بهجة عرفت الكثير عن مأساة مولدى فى مناسبات شتى وعلى مدى غير قصير ،

وتبين لى أن جدى كان يعيش فى البيت وحده محاطا بحاشية من الوصيفات والخدم ، جدتى ماتت منذ زمن قصير، كما مات أبى بعيدا عن البيت وكان الابن الوحيد الذى تبقى له على قيد الحياة حتى بلغ سن الرجولة عقب سبعة اخوة ماتوا بين الطفولة والصبا ، فكان الأمل الباقى بعد عذاب وكان حلم المستقبل الذى تمخض - فى نظر جدى ولا شك - عن خيبة أمل أنكى من الموت والا ما هان عليه أن يعاقبه حتى القطيعة المطلقة والغربة العدائية والنبذ من البيت والأسرة والتراث ، وذلك ما يجعل من جدى لغزا فى نظرى ، شخصيته توحى بالسماحة والرحمة والعذوبة ولكنه ينقلب بالغضب شيطانا أو حجرا صلدا ، عرفته وهو شبه معتكف فى بيته ولكنه كان فى الأصل أزهريا ، ورث عن أبيه وأجداده الثراء الواسع والأزهر ، على ذلك لم يعمل فى وظيفة عامة دينية أو تعليمية ، عمله كان ادارة أملاكه ، فراغه كان الدراسة والاطلاع على علوم الدين والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب ، بهوه كان ملتقى لرجال الدين والتصوف والسياسة والأدب .

★ ★ ★

سألته :

- ألم يكن له نشاط فى الكتابة ؟

- كلا ولكنه كان يدون مذكرات أو يوميات بصفة مستمرة ... ولا أدرى عنها شيئا ..

- وهل كان كذلك أبوه وجده ؟

- كانوا دائما من هيئة كبار العلماء ، هو وحده الذى آثر استثمار أملاكه والحياة الحرة ..

- هل لك فكرة عن الرجل العصامى فى سلسلة أجدادك ، أعنى الرجل العادى الفقير الذى منه نشأ الثراء ؟

- انها أسرة عريقة فى الثراء والدين ولعلى أنا أول صعلوك فيها !

فضحكت وقهقه ثم واصل :

- أنشأ أبى نشأة دينية التزاما بخط الأسرة حتى فاز بالعالمية ، وأراد أبى أن يسافر الى أوربا للسياحة والدراسة فتردد جدى مليا ثم وهبه الموافقة فسافر الى فرنسا ، تعلم الفرنسية ، واستمع الى محاضرات فى الفلسفة واللاهوت فى دراسة حرة ثم رجع الى وطنه دون أن يحصل على شهادة أو يحرر رسالة ، وأعلن عن رغبته فى مساعدة جدى فى ادارة الأملاك فسمح له بذلك وكان يرسل بمقالات الى الصحف بين الحين والحين ، ثم أحب أمى فى الوقت الذى كان جدى يدبر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر ، وتزوج منها دون مبالاة ، ماذا كان عيبها ؟ ، الفقر ؟ ، الحق أننى لم أعرف لها أهلا على الاطلاق ، لا خال ولا خالة ، لا قريب من قريب أو بعيد ، على أى حال انفجر غضب الراوى، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه ، وخيل الى كثيرين أن سلسلة الراوى بمضمونها التاريخى قد انعدمت وانتهت ، ولا شك أن أبى لم تكن تهمه سلسلة الراوى فى شىء ، كان يريد أن يحقق ذاته بطريقة أخرى ، ولا أخفى عنك أننى أعجبت به وأسفت لموته الذى لم أحزن له فى حينه لصغر سنى ..

★ ★ ★

سألته :

ـ أليس لديك فكرة عن المقـالات التى كان ينشرها فى الصحف ·· ؟

ـ بحثت عنها فى أرشيف بعض الصحف، وهى تدور حول التوفيق بين الدين من ناحية والعلم والفلسفة من ناحية أخرى، واعتبرتها دون تحيز عصرية ومتقدمة ، وبصفة عامة يمكن أن يصنف أبى فى الليبراليين، وعلمت أن أبى عمل مترجما فى صحيفة الفجر عقب استقلاله عن أبيه ، وأذكر أننى ناقشت جدى فى موقف أبى عنـدما بلغت سن المناقشة ، سألته ذات مرة ونحن فى جلسـة مؤانسة :

ـ كيف هان عليك يا جدى أن تطرد أبى لزواجه من امرأة من عامة الشـعب ؟ ·· انك رجل مؤمن صـافى الروح نبيل الخلق فكيف هان ذلك عليك ؟

وكان واضحا أنه لم يرحب بالسؤال ولكنه أجابنى قائلا :

ـ انك مخطىء فى تصورك ، انى أرى الانسان نوعين: انسان الهى وانسان دنيوى ، الانسان الالهى هو من يعايش الله فى كل حين ولو كان قاطع طريق ، والدنيوى هو من يعايش الدنيا ولو كان من رجال الدين ···

ـ وهل كان أبى سيئا ؟

ـ كان دنيويا فحسب ··

ـ كانت أمى طيبة ونبيلة ··

فتمتم :

ـ فليرحمها الله !

ثم واصل بعد هنيهة :

ـ لم أخطىء ولم أندم ولكنى حزنت طويلا ··

كنت متأكدا من حزنه ، لولا حزنه الدفين ما لان قلبه لى ، وقال لى :

ـ لقد فتحت لك قلبى وبيتى ، سيكون كل شىء لك ، ولكن عليك أن تكون انسانا الهيا ، انى لا أدعوك للزهد فان عملى الأول هو ادارة الأملاك ··

ورتب لى منذ أول يوم مدرسا يعلمنى مبادىء الدين واللغة والحساب · لقنت مبادىء دين جديد غير الدين الذى تلقيته عـلى يد أمى ، دين المغـامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح ، أما هذا فدين يبـدأ بالتعلم والجدية، حفظ سور وشرحها ، المام بالقواعد ، ممارسة للصلاة والصيام ، دين نظـرى وعملى ، ومدرس جاد يرفع التقارير لجدى أسبوعا بعد أسبوع · ولم يخف المدرس رضاه عنى فقال لى :

ـ أنت ولد مبارك ، وليتم الله نعمته عليك ··

كنت قوى الحافظة ، حسـن الفهم ، محبا للعمل ، ومارست الصـلاة بسرور مؤتما بجـدى كما مارست الصيام ، ولم ينسنى ذلك دينى الأول ، فتراكم الجديد فوق القديم ، ولم يسكت صوت أمى المتردد فى أعماقى ، وقد قال لى المدرس فى أثناء مناقشة :

ـ الضريح مبنى من المبانى والولى جثمان ··

فقلت باصرار :

ـ بل لكل شىء حياة لا تفنى أبدا ·

فابتسم الرجل وقال :

- فلنترك خلافاتنا للزمن وللمزيد من العلم ٠

ويبدو أننى أحرزت تقدما يستحق الارتيـاح ، وكأن جدى يدعونى الى شهود مجالسه العامرة بصفوة رجال الدين والدنيا ، كان يدعونى لشهودها وقتـا قصـيرا يناسـب اسـتعدادى ، وكثيرا ما سمعت القـوم وهم ينـوهون بأجدادى فى مواقفهم المـأثورة حتى امتلأت فخرا بأولئـك الرجال المتـازين الذين عرفوا بالعلم والجود ومكارم الأخلاق ، بقدر ما تنغص صفوى لغياب ذكر والدى ، والظلام الذى يغشى أصـل أمى ، وكلما تقدم بى العمر عاودت التفكير فى أمى بمرارة أشـد وأعمـق ، واقتنعت بأن مأسـاتها ـ ومأسـاة والدى بالتبعية ـ حادثة غير معقـولة ومناقضـة للدين الذى أتعلمه وأمارسه ، وأن جدى يتصرف أحيانا تصرف من لا دين له ! ، لقـد ذهبت أمى ولكنهـا أورثتنى دينهـا ومأساتها ، وسوف يرسبان فى جانب من نفسى طويلا ، ربما أطول مما تصورت ٠

وأغدق جدى على حبه وحنـانه وهو يتابع نجاحى وتقدمى ، قال لى :

- يا جعفـر ، أراك جديرا بتجديد شـباب شجرتنا المباركة !

وقال لى :

- سر متأبطا ذراع الحكمة وافعل ما تشاء ٠

وقال لى أيضا :

- مبـارك من يتحلى بوحى الله ، وأمام المجتهـد وسيلة ليتبوأ العرش !

وفى نشوة من التفاؤل قال :

- خطواتك فى النجاح مباركة، وسوف تدخل الأزهر الشريف عما قريب ، ألا يسرك ذلك ؟

فأجبته باخلاص :

- يسرنى جدا يا جدى ، وأود بعد ذلك أن أسافر الى أوربا ٠٠

فتجلى الاهتمام فى عينيه وسألنى :

- ما الذى جعلك تود ذلك ؟

- أسوة بما فعل أبى !

فمسح على لحيته البيضاء وتمتم :

- عليك أن تتحلى بوحى الله ثم افعل ما تشاء ٠

فترددت قليلا ثم سألته :

- أكانت خطيئة أبى الوحيدة أنه تزوج من أمى ؟

فتجهم وجهه وقال بحدة :

- ما مضى قد مضى ٠

وأغمض عينيه كأنما ليفرغ شحنة احتداده ثم قال:

- لقد شرحت لك ولكنك لا تريد أن تفهم !

قلت لك ان وجهه تجهم ولكن ما رأيته كان أفظع من ذلك ، لم تكن لحظة عابرة ، ولكنه تصور فى صـورة جديدة ومخيفة ، تحجرت نظرته وشدت عضلاته وتغير لونه فخيل الى أنى أرى شخصا لم أره من قبل ، عدو منطلق منبركان حاملا غضب الأرض ،قل انه الصاعقة أو الموت نفسه ، ولكنها كانت لحظة عابرة خاطفة ثم عاد جدى الى مجلسه ٠ عدا ذلك لم أجده قاسيا ولا مخيفا ولا ثقيلا، كانت الانسانية عبيره والحب اشارته

حتى عز على أن أصدق أنه فعل بأبى ما فعل ، وكثيرا ما قلت لنفسى لعله كان يضمر الغفران ويتحين الفرص ليصدر عفوه لولا أن عاجلت المنية أبى فى عز شبابه ، وحتى بعد لحظة تجهمه المخيفة حدست فى قوله « ما مضى قد مضى » ألما أثارته الذكرى وندما يصر على مطاردته ، ولعل عذابه ناشىء عن مثاليته المفرطة ، فهو يطالب الانسان بالسمو والتطهر والكمال، وباعتناق رؤياه فى الوجود ، ويحتقر الضعف وما يراه انحلالا وتدهورا فى التكامل البشرى ، هكذا اقتنعت بأن الطريق الى حنانه واضح ومستقيم ولكنه حافل بالجهد والصبر والعرق ، والقوة والتقدم والسمو ، وهو ماعناه بقوله « الانسان الالهى » ٠

وفى المواسم كان يجتمع الزوار للاستماع والطرب فتغرد الحديقة بالأغانى الصوفية ترددها الحناجر الذهبية الذائعة الصيت ، وكان جدى من عشاق الطرب ، وله فيه ذوق يستوى فى مكانه من نفسه الغنية بشتى الاهتمامات الدينية والدنيوية ، وكنت أتابع الأناشيد ساهرا حتى الفجر وأنتظر تلك السهرات بلهفة المحبين ، وقد ضبطنى مرة وأنا أغنى :

أدر ذكر من أهوى

كنت مفترشا حصيرة تحت شجرة ليمون وأردد الغناء مقلدا الشيخ فانتبهت الى ظله وهو يغطينى وأمسكت عن الغناء فى غاية من الارتباك والحياء ، ووقفت أمامه فى أدب ، ابتسم ، تمتم :

ـ ما هذا ؟ ٠٠ صوتك لا بأس به يا جعفر ٠٠

فأحنيت رأسى فى رضى وبركة ، سألنى :

ـ ماذا تغنى أيضا فى خلوتك ؟

فأجبت :

ـ أغنيات من العهد القديم ٠

ـ مثل ماذا ؟

فترددت قليلا ثم قلت :

ـ عصفورى يا امة عصفورى ٠

فواصل ابتسامه وقال :

ـ ها أنت تحفظ هنا أناشيد مباركة ٠

ومضى يتفقد الحديقة وقد بدا جليلا مضيئا ٠

وفى أوقات الفراغ كنت أجلس الى بهجة لتحكى لى الحكايات ، أو أغنى ، أو ألعب فى الحديقة مع الحمار ، وأحيانا ألاعب أبناء البستانى والطاهى وسواق الحنطور ، وطيلة الوقت أتعطش للانطلاق فى الحارة ، وهل يمكن أن أنسى رحلاتى المتواصلة فى حوارى القاهرة تشدنى يد أمى ؟ ، وصارحت جدى برغبتى فى الخروج فقال لى :

ـ اركب معى الحنطور فى نزهة المساء ٠

ـ أريد أن ألعب فى الحارة ٠

ـ أليست الحديقة أجمل من الحارة ؟

فقلت بحرارة :

ـ أريد أن ألعب مع الأولاد فى الحارة ٠

فهز رأسه مستسلما وقال :

ـ بشرط ألا تغيب عن عين بهجة وألا يفوتك ميعاد صلاة ٠

هكذا خرجت الى الطريق الذى منه جئت .

وكانت بهجة تجلس على كرسى أمام الباب لترعانى من بعيد ، وسرعان ما عرفت أولاد الجيران ، وفى مقدمتهم ابن لسواق سوارس يدعى محمد شكرون ، كان حسن الصورة رغم ضخامة أنفه وعرجه ، دعانى أول يوم الى مسابقة فى الجرى ! ، وجرى بأسلوب مضحك وبعناد ، وبين آونة وأخرى كان يثب وثبة شيطانية يقطع بها مسافة خيالية متحديا ضعفه الطبيعى ، وكان لطيفا وصريحا فبعد أن تقرر له الفوز قال لى :

ـ انك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنيا مثلك أن يشترى لنا الملبن الأحمر والسوبيا ..

ولما أكل وشرب انبسط وراح يغنى :

من فوق شواشى الجبل باسمع نغم بالليل
عشق البنات البكارى هد منى الحيل
من فوق شواشى الجبل

واذا به يملك صوتا عذبا يهز النفس هزا ، وأدركت لتوى أننى لا أستطيع منافسته، ولكننى رغم ذلك غنيت ما حفظته من غنائه ، فتكرر على مسمعى ما سبق أن قاله جدى لى ، قال :

ـ صوتك لا بأس به !

فقلت له :

ـ صوتك جميل حقا يا شكرون .

فقال فى مباهاة :

ـ ستسمعنى يوما مطربا من المطربين .

سرعان ما اتحدت علاقتنا فى صداقة وطيدة ، تميزت وسط العلاقات السطحية الكثيرة عاطفة راسخة وعميقة، وكان الغناء محور اجتماعنا وبخاصة فى ليالى رمضان الساهرة ، ومن ناحيتى دعوته لشهود سهرات الطرب الدينى فى بيتنا فسر لذلك سرورا لا مزيد عليه ، وأبهجه أن يسمع أقطاب المنشدين وأن يدرس عن قرب مهاراتهم الغنائية وخواصهم الصوتية وقدراتهم فى التطريب والتأثير ، وتجلى ذلك فى انفعاله العنيف الذى بلغ حد العشق والوله ، ودفعه ذلك لاقتحام وقار المجلس بجرأة فاقت كل تصور ، فما كاد المنشد يختم وصلة حتى قام محمد شكرون من مجلسه الى جانبى وراح ينشد بصوته الحسن :

أهلا ببدر التم روح الجمال

فجذب الأسماع بحلاوة صوته وحداثة سنه، وعمت شهرته الحاضرين من منشدين ومدعوين ، حتى جدى لم يخف اعجابه به ، وكان بين الحاضرين شيخ يدعى طاهر البندقى ، صوفى وملحن وأستاذ فى الموسيقى الشرقية ومن أقرب المقربين الى جدى ، فأعجب بشكرون جدا وجاذبه الحديث طويلا ، حتى عرف أصله وفصله وآماله ، هذا هو سحر الغناء والجن يطربون لنا ونحن نطرب لهم ، وقد زعم بعض أهل مرجوش أنهم كانوا يسمعون غناء مطرب من الجن قبيل الفجر ..

فقاطعته برجاء :

ـ دعنا من الجن ، نحن الآن فى بيت الراوى ، ثم اننى مؤمن تماما بأنك لا تصدق شيئا من ذلك ..

ـ الذكريات تنهمر كالمطر ٠
ـ هى دائما كالمطر ومهمتك أن تصنع جدولا صافيا ٠٠
فتنهد ثم واصل :
ـ زار الشيخ طاهر البندقى جدى عقب أسبوع من مغامرة شكرون وأطلعه على خاطرة خطرت له وهى أن يعلم محمد شكرون الموسيقى الشرقية ويدربه على الغناء فوافق جدى على ذلك بسرور ، وتعهد بأداء نفقات التعليم والتدريب ، وثبت عندى من ذلك حب جدى العميق للغناء والموسيقى ، وأنها عاطفة مستقلة بذاتها عنده وليست تابعة لتدينه فحسب ، وقد قلت له عندما أخبرنى بما قرره بخصوص صديقى :
ـ انك تحب الغناء يا جدى ٠
فابتسم متسائلا :
ـ لم لا ؟ ٠٠ انه صديق الروح الحميم ٠٠
ـ وهل سمعت يا جدى كبار المطربين ؟
ـ نعم ، فى بيوت الأصدقاء فى المناسبات السعيدة ٠
ولم يكن انفاقه على شكرون الا مثلا من انفاقه على المحتاجين من أهل حينا ٠٠

★ ★ ★

فقلت تلقائيا :
ـ وتوج ذلك بوقف أملاكه كلها للخير !
فصاح جعفر :
ـ أما ذلك فلا ، لا خير فى خير يقوم على شر !
ـ أعتذر عن المقاطعة ٠٠
ـ اعتذر عن رأيك وهو الأهم ٠

ـ أعتذر ٠
نفخ غيظه وواصل حديثه قائلا :
ـ أصبح محمد شكرون تلميذا للشيخ طاهر البندقى، وأتاه الحظ عبر صداقتنا الوطيدة، وكنت أنا البواب الذى فتح له باب النجاح ، وقد سررت لذلك سرورا بالغت فيه أمام جدى ، ولكنه نظر الى بارتياب وسألنى:
ـ هل يمازج سرورك شيء من الغيرة ؟
فنفيت ذلك بشدة ولكنه قال باستياء :
ـ الغيرة رذيلة لك عليها فى مثل سنك عذر أما الكذب فلا عذر لك فيه ، لا تكذب يا جعفر ، كن دائما صادقا ، لا تغضب جدك فهو يحب النقاء ، وقد وهبك الله عقلا راجحا كما وهب صديقك صوتا عذبا فانعم بما وهبك ولا تنغص صفوك بما تفتقد ، ولو كنت ذا استعداد للغناء ما سانى أن تصير مطربا ، فالمطرب أيضا يستطيع أن يكون انسانا الهيا ، من رحمة الله أن كل شخص يسعه أن يكون الهيا حتى الزبال ، أما أنت فعليك أن تستعد لدخول الأزهر ٠٠
فقلت بصدق :
ـ أعز آمالى يا جدى أن أوفق فى حياتى الدينية ٠٠
لا أنكر أننى شعرت بشيء من الغيرة ، وأزعجنى أن يقتحمنى جدى بقدرة خارقة على قراءة ما فى الصدور ، ولكننى على أى حال شعرت بشيء من الغيرة ، ها هو شكرون يتفوق بموهبة لا حيلة للاجتهاد فيها ، وها أنا أعانى تناقض العواطف فى رحاب القلب المعذب ٠ على أن أحلامى حامت حول الدين والحياة الدينية ، وشعرت

شعورا مبهما بأن ثمة رسالة تنتظرنى فى هذا المجال المقدس فتطلعت اليها أشواقى من الأعماق ، ولم تغب عن خاطرى التركة الكبيرة التى سأرثها ذات يوم ، عزبة المرج والعمارات والأموال السائلة ، ولم يكن العمل يهمنى ، ولكنى حلمت بالرسالة ، والجلوس فوق أريكة جدى أستقبل الرجال ، رجال الدين والدنيا ، نناقش جميع الأمور الهامة ، ونطرب مع المطربين فى أوقات الفراغ ..

★ ★ ★

قلت مقاطعا :

ـ انى أتذكر المغنى الأعرج كما أتذكرك فى الجبة والقفطان ..

فسألنى مباهيا :

ـ ألم تر بنفسك أن الله خلقنى فى صورة حسنة ؟

ـ كنت حسن الصورة حقا ..

ـ كنت حسن الصورة ، حسن السريرة ، شريف الآمال ، وقد دخلت الأزهر فى طور المراهقة مدعما بقوة انسانية منورة ، كأننى أمير سماوى ، لأجد نفسى فى بيئة شعبية أصيلة أنهكها الفقر والتقشف والأسى ، ولاتتيسر لها الانسانية الحقة ، الا فى الجد الصارم والاجتهاد المتواصل وتحصيل العلم بلا هوادة ، عرفت العديد من الأقران ، وصادقت كثيرين ، وقد ذكرونى بشعبيتهم وخرافاتهم بمرجوش وبيد أمى وبأصلى المأساوى الأصيل ، فأحببتهم رغم كل شىء ، وكنت أدعوهم للعشاء مساء كل جمعة فى بيتى ، وطيلة شهر رمضان

كانت نخبة منهم تفطر معى وتتسحر معى وفيما بين الاقطار والسحور كنا نمضى الوقت فى المذاكرة والمناقشة ، وبذلك اكتسبت مكانة فريدة لا تتأتى عادة لطالب ، ولاحظ جدى سرورى بذلك فقال لى :

ـ اياك والخيلاء ، املأ قلبك بحب هؤلاء الفقراء الأشراف ، واذكر دائما نعمة الله عليك ..

ولكن تفوقى كان يزكينى دائما عنده ، فشيخ التوحيد أثنى على عند جدى ، كذلك أستاذ الفقه والنحو ، والمنطق ، حتى سر جدى وقال لى :

ـ ستكون شيخا ممتازا .

ثم مستدركا :

ـ الأهم من ذلك أنك تمضى فى طريق النقاء بخطى ثابتة ...

وقلت لجدى :

ـ أريد أن أهب حياتى للدين ، لا أدرى كيف ، ولكننى غير متحمس لأى عمل كالوعظ أو التدريس أو غيرهما ..

ـ لا أهمية لذلك ألبتة ، مايهمنى هو ارادتك النقية، هو ايمانك وحبك للدين ، بعد ذلك ستجد أن كل كتاب هو كتاب دين ، وكل مكان معبد سواء فى مصر كان أم فى أوربا ، وسييسر الله لك سبيل الحكمة لتكون ممن يجودون بالحكمة ، بالكلمة أو بالفعل ، وهذه هى الحياة الالهية ..

استثار ذلك حماسى لأعلى الدرجات ، وكنت أتقدم مترع القلب بالايمان والقداسة ، أستضىء بمثل جدى

فى الحياة ، بحياته الجميلة الغنية التى عاشرتها فى قصره ، بأصدقائه ومناقشاته وطربه ٠

ولكن كانت تمر بى ساعات سوداوية ، تتسلل الى من مكامنها فتغير مذاق الحياة ، وتغشانى سحب الذكريات السود ، فأفكر بحياة النفى التى عاناها أبى، ومأساة أمى ذات التاريخ الغامض المجهول ، وعندذاك يثور غضبى على جدى ، وأحاسبه فى الخيال حسابا عسيرا ، ويتبدى لى شيطانا فى ثوب ملاك ، وأقول ما هو الا رجل من الأعيان يستمتع بكل طيب فى الحياة ويزعم أنه قديس الهى ٠٠

ولم أجد من أفضى به اليه بهواجسى الا محمد شكرون ٠

كان بدأ يشق طريقه بصعوبة فى ميدان مزدحم بأصحاب العروش من كبار المطربين والمطربات ٠

وكان يحب جدى ويحفظ له جميله ويقول عنه :

ـ انه النبيل ابن النبلاء ، لا نظير له فى خلق الله ٠

فأسأله :

ـ وما رأيك فى موقفه من أبوى ؟

فيقول لى :

ـ علاقة الأب بابنه علاقة غامضة بالرغم من وضوحها السطحى، أحيانا يتدفق منها الحنان وأحيانا تتجمد بالقسوة، عرجى هذا الذى تراه ما هو الا عاهة صنعها أبى فى ساعة غضب ، أما أخلاق الرجل الحقيقية فتقيم على ضوء علاقته بالآخرين ٠٠

وطبعا لم أقتنع بتلك النظرية وقلت :

ـ ان أخلاق الرجل ـ أى رجل ـ وحدة لا تتجزأ ٠

على أن تلك الساعات السوداوية كانت تجىء كأحوال عابرة لا آراء ثابتة ، وسرعان ما يعود الى صفاء النفس والرؤية الواضحة ، أما أزمة تلك الفترة الحقيقية فكانت أزمة جنس ، أزمة المراهق المتشوف الى القداسة ونزاعه الدائم مع غرائزه القوية ، وعاودتنى كثيرا ذكريات السحارة والبنت التى باتت الآن مجهولة تماما ، وتعجبت كثيرا كيف أن جدى يناقشنى فى كل خاطرة تخطر على أنه يتجاهل المعركة الحقيقية الناشبة فى صدرى ، وكان فى بيتنا ثلاث نساء ـ بالاضافة الى بهجة العجوز ـ فى الحلقة الخامسة من أعمارهن ، لسن جميلات ولا مغريات ولكنهن لا يخلين من رمق يزكيهن عند مراهق مكبوت، وكنت أرى النساء فى الشارع فى ثيابهن المحتشمة غاية فى الاثارة ، وكان النضال بين ضميرى وغريزتى لا يكف ولا يهدأ ، غير أننى تغلبت على الاغراء بقوة تستحق الاعجاب ، وكأن تشوفى لله فاق كل شىء وهزم الشيطان فى معاقله جميعا٠

أجل لاحظت بهجة نظراتى نحو زميلاتها فجزعت وتوسلت بمنزلة الأمومة التى احتلتها من نفسى لتصارحنى بمخاوفها :

ـ لا تعرض نفسك للهوان ، جدك يعتبر جميع ما فى البيت امتدادا لشخصه ، والمساس بأى منها مساسا بذاته المصونة ، وقد نعمت حتى الآن برضاه ووجدته بلا شك نعمة تستحق الحمد عليها ولكن لجدك جانبا آخر يسكنه الغضب فتجنبه وأنت خير من يفهم ذلك ٠٠

فتمتمت بذهول :

ـ أبى !

ـ أجل ، وأنت مؤمن ، وصلواتك عبادة حقيقية ، لم لا تفكر فى الزواج وجدك كفيل بتزويجك من فتاة تحقق أحلامك وزيادة ؟

فقلت بدهشة :

ـ لم أفكر بذلك وأعتقد أن الوقت المناسب لم يحن بعد كما أننى أكره فكرة الزواج كبديل للخوف من الخطيئة !

ـ أنا لا أفهم أفكارك ولكن اذا أردت مساعدة فانى رهن اشارتك ٠

وقد علم محمد شكرون بذلك الحديث ، وكان على علم بأزمتى ونضالى ، وكان يعجب لها ، وطالما قال لى :

ـ تعال معى الى بيوت العوالم فثمة فرص فريدة ، وما عليك الا أن تغير ملابسك الدينية فى بيتى ٠٠

ضحكت طويلا ، ورفضت أى فرصة ممنوحة بكبرياء واعتزاز بالنفس ، وأسعدنى أن أتألم فى ذلك الطريق وأن أنتصر على ألمى ، وكنت أقول لنفسى :

ـ طوبى لى ، انى أنتصر كل يوم مرة على الأقل على الشيطان وانى جدير حقا بمستقبلى الطاهر ٠٠

وفكرت بأمور جديدة لأول مرة فسألت بهجة :

ـ متى ماتت جدتى ؟

فترحمت عليها قائلة :

ـ منذ حوالى عشرين عاما ٠

ـ أكان لمأساة أبى دخل فى ذلك ؟

ـ الأعمار بيد الله وحده ٠

ـ ولم لم يتزوج جدى بعدها ؟

ـ هذا شأنه ٠

وتساءلت ترى هل كان لجدى حياته الجنسية الخاصة ؟ ٠٠ وارتعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسى انه سيقرأ خواطرى فى عينى كالعادة وسرعان ما تقع مأساة جديدة ، وقلت لنفسى أيضا ان جانبا من نفسى يتعقب جدى للانتقام وأن حبى له ليس خالصا تماما ، وأننى لا أريد أن أنسى تماما مأساة والدى ، وآى ذلك أننى ما زلت ألح على بهجة حتى اعترفت لى بأن أمى كانت ابنة دلالة تتردد على بيتنا ، وسألتها ان كان عرف عنها أو عنهما شىء من سوء فأجابت بالنفى وقالت لى صراحة :

ـ جدك لا يعترف بالناس المجهولين !

فقلت بامتعاض واحتجاج :

ـ ولكن الناس جميعا الا ما ندر مجهولون ٠٠

الا أنه يحلم بعالم من البشر الالهيين على حد تعبيره ، أفلم يفطن الى قسوة حلمه ؟

وقررت أن أصوم رجب وشعبان ورمضان كل عام ، ومضت الحياة فى جد واجتهاد وطهارة ، وكان جدى يتابعنى باهتمام وارتياح مغمغا :

ـ ما شاء الله العظيم ٠٠

٥

كنت أسير بصحبة محمد شكرون فىأطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان · تنحينا جانبا لنوسع للقافلة ، رأيت المرأتين ، وهما أم وابنة غالبا ، صـورة واحدة متكررة ، ترتدى جلبابا أسود ، متمنطقة بزنار ، حافية القدمين ، متلفعة بشال أسود ، وبرقع فضفاض تطل من فوق حافته العينان ، وباليد مغزل ·

★ ★ ★

وانقطع عن الكلام مليا حتى سألته :

ـ ماذا حدث يا جعفر ؟

فالتفت نحوى قائلا :

ـ انى أتساءل أيضا عما حدث ··

ـ ماذا تعنى ؟

ـ بكل ايجاز لقد نظرت الى عينى الفتاة فاقتحمنى الجنون الكامل ·· ، ولكن لندع مناقشة ذلك الى حينه ، سأصف لك الآن ما وقع ، لقد شعرت بأننى مت وبأن شخصا جديدا يبعث فى مكانى ، وسوف تصـدق أنه شخص جديد بكل معنى الكلمة ، لا علاقة له بالشخص الميت ، شخص جديد ثمـل ، يفيض قلبه بالأشـواق والقـدرة الخارقة على التحدى والالتحام ، وسمعت محمد شكرون يقول لى :

ـ متى تواصل السير ؟

وراقبنى بحدة ثم تمتم باسما :

ـ انها راعية غنم !

فقلت وأنا ألهث :

ـ بل انه القدر ··

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا بد من معرفة مقرها ··

ـ حسن ولكن لا تنس العمامة فوق رأسك !

قوة أخرى غير ارادتى تسلمت زمامى ، سرنا وراء القافلة ، اخترقنا النحاسـين فالحسـينية ، ثم رأيت العباسـية فالوايلية ، لم أشعر بتعب ، لم أرحم عرج صاحبى ، سرت بقوة الجنون والسكر وتفجرت فى قلبى ينابيع المغـامرة بلا حدود ، وتتابعت أقـوال محمـد شكرون وشكاياته :

ـ سامحك الله ··

ـ ماذا حل بك ؟

ـ البنت منتبهة الى متابعتك لها ··

ـ انهم غجر وأفظع من الشياطين ··

ـ قل لى بالله ماذا تريد على وجه الدقة ؟

أخيرا رأينـا القـافلة وهى تدخل معسكر عشش الترجمان وشعاع الشمس يتقلص من ساحتها الرهيبة لينطوى فى شـفق المغيب ، مودعا أكواخها المصفحة وأناسهـا المتوحشـين وطابع البـداوة والنفى الذى يفصل بينهـا وبين المدينـة ، وتوقف محمـد شكرون ممسكا بذراعى وهو يقول :

ـ لا خطوة بعد ذلك فليس ثمة مكان لغريب ··
وتأوه مستطردا :
ـ لقد دميت أقدامنا ··
فقلت من عالمي الوجداني البعيد :
ـ لقد ودعتني بنظرة حية قبل اختفائها ··
ـ مبارك عليك ··
ثم توسل الى قائلا :
ـ لنستقل سوارس في عودتنا ·
ولم يفارقني شكرون ليلتها فسهر معي حتى منتصف الليل في البيت ، وجعل يتأملني طويلا وكأنه لا يصدق ، وسألني :
ـ ماذا دهاك ؟
فقلت له بأسى :
ـ ما تراه بعينيك ·
ـ لا أفهم ··
ـ ليكن ، اني مجنون بالبنت ··
ـ أيحدث ذلك بهذه السرعة ؟
ـ لقد حدث ·
ـ ولكنها راعية ومن بيئة شريرة ·
ـ انه القضاء لا مفر ·
ومضى يفكر قائلا :
ـ كيف يمكن اغراءها ؟ ·· هل لهن استعداد لذلك ؟ ·· كيف نعمل مع تجنب الفضائح ؟ ·· وما العمل اذا تحدانا المستحيل ؟
فقلت باصرار لا نهائي :

ـ بأي حال من الأحوال أريدها ··
وجعلت أمضي الأصيل عند مشارف الدراسة ، مع صديقي أو مع نفسي ، جالسا على حجر ، من حولي ترعى الشاة والماعز والجدي ، على حجري كتاب المنطق مفتوحا ، وعيناي تسترقان النظر اليها وهي جالسة لصق أمها وهما تغزلان ، وكان المكان شبه خال لا يمر به الا المتشردون وهم راجعون الى المقطم، وعندما تميل الشمس نحو المغيب تمضي القافلة في رحلتها اليومية مخلفة في قلبي كآبة وفراغا لا يملؤه شيء فأذهب الى الجامع لأصلي المغرب ثم أحضر درس المنطق ·
وقررت أن أخفي كوبا في جيب قفطاني ·
وعندما جمعنا الخلاء اقتربت من الأم وقدمت الكوب طالبا حليبا فوثبت مروانة ـ كما سمعت أمها تناديها ـ الى ماعز وراحت تحلب لي اللبن ثم ردت الى الكوب مغطى بالحباب فتناولته وأنا أقول لها :
ـ عاشت يداك يا مروانة ··
فابتسمت لي عيناها على حين نظرت الأم نحوي بارتياب وأنا أشرب اللبن ، ثم تمتمت :
ـ هنيئا !
فشكرتها فقالت لي بلهجة ذات معنى :
ـ أنتم يا شيوخ رجال ربنا ·
فقلت بامتنان :
ـ الحمد لله ·
سعدت بانشاء العلاقة وتبادل الحديث وشملتني غبطة سابغة حتى لحظة الفراق ·

ومن موقع المراقبة قال لى محمد شكرون :

ـ لقد تحريت بما فيه الكفاية ، وأقول لك ان أولئك الناس مع كل شر الا الشر الذى يسيل لعابك عليه ٠٠

فقلت له باستهانة :

ـ سيخرج من القمقم مارد لن تعرفه مهما ادعيت بأنك كنت له صديقا ٠

ولم يقدر ما فى قولى من ثورة ، لم يعرف أننى أصبحت ملك الملوك وأننى أفعل ما أشاء بغير حساب ، وأننى سكران بفورة الجنون الأحمر ٠

وربط كوب اللبن بيننا برباط حريرى قاتل ، ومن شدة نشاطها لمست أناملها وأنا أتناول الكوب ، وقلت لها :

ـ أنت كريمة يا مروانة !

فحبكت الخمار حول رأسها وهى ترمقنى بشيطنة فقلت وأنا أذوب فى كلامى :

ـ ما أجمل عينيك !

وقلت أيضا وهى تمضى :

ـ ما أجىء هنا الا من أجلك !

وكفت الأم عن الغزل وقامت ٠ تناولت حصاة من الأرض ورمتها بعيدا صوب الجبل ٠ ورأتنى أنظر اليها متسائلا فقالت :

ـ وسيلة حكيمة لصد الزواحف والحشرات ٠٠

فقلت بارتياب :

ـ الله خير حافظا ٠٠

فقالت بحزم :

ـ ولكن علينا أن نخاطب الشر بلغته ٠٠

★ ★ ★

وضحك وقال لى :

ـ صدقنى فيما أقول ، كله ، وبلا تردد ، لا تتأثر بمنظرى الراهن ، ان من يرانى يؤمن بأننى ولدت فى مزبلة ولم أمارس الا انفعالات القىء ، ولكن ما فكرتك عن الحب ؟

فقلت مباغتا بصعوبة السؤال :

ـ الحب هو الحب ، انى أصدق جميع مايقال عنه٠٠

ـ وتؤمن بأنه يصنع المعجزات والعجائب ؟

ـ أجل ، لست غرا، ولكن حدثنى عن حبك يا جعفر، عن نوعه ، راعية غنم حافية الأقدام قد تشعل الدم ٠٠

ـ كان كذلك ، نداء للدم ، نداء صارخ دافع للحركة ، مغر بالجنون والمهالك ، يقتحم الأبواب والنوافذ ويرتكب الجرائم وينتحر ٠٠

فقلت بدهشة :

ـ ولكنك كنت وليا من أولياء الله الصالحين ٠

ـ لكى تعيش تجربتى تصور أنك فقدت الذاكرة فجأة وأنك أصبحت شخصا جديدا ٠

ـ ولكن الفرد يتغير بالتدريج فيما أتصور ٠

ـ كلا ٠٠٠ كلا ٠٠٠ انى أتغير من النقيض الى النقيض ٠٠ فجأة ٠٠ !

ـ لا شك أنه يحدث فى الظلام أمور كثيرة بعيدة عن وعيك ٠

ـ الانسان يخلق المنطق ولكنه يتجاوزه فى حياته ،

والطبيعة يا عزيزى تستعمل الطفـرة كما تسـتعمل التطور !

ـ هات ما عندك يا جعفر ·

فواصل قائلا :

ـ وذات يوم دعانى جدى الى مجلسه ، سمح لى بالجلوس ثم سألنى :

ـ كيف حال دراستك ؟

أدركت لتوى أنه دعانى لأمر آخر اذ أن شـيوخى كانوا يبلغونه عن تقدمى الفريد أول فأول ، وعلى ذلك أجبت بأننى عند حسن ظنه فقال :

ـ ولكن الطريق طويل وهو ملىء بالمتاعب ··

فقلت بحماس ظاهرى فحسب :

ـ المؤمن لا يخشى الطريق ··

ـ قول حسن ولكن الفعل الحسن أهم من القـول الحسن ·

ـ هذا حق ·

وتريث لحظات ثم قال :

ـ ثمة أمور تدعو للتأمل ، وقد حلمت حلما ، وعند اليقظة عقدت العزم على شىء ··

ـ وما الحلم يا جدى ؟

ـ لا أهمية لذلك ، والأحلام تنسى بسرعة ، ولكن بقى ما عقدت العزم عليه ·

ـ أهو يتعلق بى يا جدى ؟

ـ أجل ، وسوف يسعدك ··

ـ حقا ؟ !

ـ قررت أن أزوجك من بنت الحلال ·

ذهلت ، صمت ، قلت لنفسى ان الرجـل عالم بكل شىء ، كيف غاب عنى أن جولة مسائية غريبة يقوم بها حفيد الراوى لا شك تلفت الأنظار وتثير التأويلات ثم يتطوع بابلاغها اليـه المتطوعون ، انه عالم بكل شىء ويحاول انقاذ ما يمكن انقاذه ·

ـ ماذا بك يا بنى ؟

ـ لم يخطر لى ذلك ببال ·

ـ فليخطر اذن ··

ـ ولكن ··

ـ ان الشباب يمضى بلا زواج لأسباب قهرية وقد حباك الله بنعمته فما معنى أن تؤجل ما يعتبر نصـف الدين ؟

ـ دعنى أفكر فى الموضوع بعض الوقت !

ـ سأختار لك عروسا فريدة وسأترك الحكم لك !

رجعت الى حجرتى هائجا فلم يغمض لى جفن حتى ترامى الى أذان الفجر ، شحنت بقوة جبارة وأردت أن أنهال على الجدران فأدكها دكا ، انطلق المارد متحديا ، صمم على نيل فتاته ولو على أنقاض الحى كله لا القصر وحده ؛ وناجيت أبى وأمى طويلا ، وثار غضـبى على جدى بلا حساب ، انه لا يريد أن يكفر عن جريرته وما زال غرامه عنيفا بالتسلط والقهـر ، وفى حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بينى وبين جدى ، فى حلم أو فى هذيان الليل أو بين النوم واليقظة لا أذكر ·

ـ جدى ·· انى أرفض ·

ـ ترفض نعمتى ؟
ـ أرفض القهر ·
ـ ولو كان منى ؟
ـ ولو كان !
ـ أنت عاق ، تخون الجمال والنقاء ، فى سبيل ماذا ؟
ـ الحرية !
ـ راعية الغنم ·
ـ الدم والتشرد والهواء النقى ·
ـ انه الجنون الذى يخرج به الممسوسون من بيتى العتيق ·
ـ النعيم الحق فى الجنون ·
ـ انك ابن والديك ·
ـ وانى أعتز بذلك الى الأبد ·
ـ نصفك يود الانتقام منى ·
ـ لا أريد أن أفكر فدعنى أفعل ·
ـ والجبة والقفطان ؟
ـ سأخلعهما من توى ·
ـ اذن كفرت ؟
ـ لا أريد الدين مهنة ·
ـ ماذا تريد أن تفعل ؟
ـ أريد أن أمارس الحب والجنون والقتل !

أعتقد أننى عبرت بهذا الحوار عن الحال التى كنت أعانيها تعبيرا كاملا ، وعندما أفضيت بأسرارى الى محمد شكرون ذهل تماما ولم يصدق أذنيه ، ولما وجد منى الجد كل الجد سألنى :

ـ هل ترفض حقا ما عرضه جدك عليك من أجل مروانة ؟

فأجبت بالايجاب :

ـ أتترك البيت من أجل راعية الغنم ؟
ـ نعم ·
ـ ما معنى ذلك ؟
ـ اعتبرنى مجنونا اذا شئت ·
ـ ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحاذا ؟
ـ هذا محتمل ·
ـ لا تستحق امرأة تضحية بهذه الجسامة ·

فهززت منكبى استهانة فقال :

ـ أنا لا أفهمك ·
ـ المسألة لا تتعلق بالفهم ، انها واقع ·
ـ وما تفسيره ؟ ·· هل ثمة سر ؟
ـ انه جنون باهر وأنا مسحور به ·
ـ صبرك ، يمكن التوفيق ·
ـ انى أحتقر التوفيق ·
ـ يمكن أن تبقى فى رعاية جدك وأن تواصل دراستك وأن تمارس حبك الجنونى ··
ـ كلا ·· كلا ·· انها أشياء متنافرة جدا ، وقد اخترت ··
ـ اخترت ماذا ؟
ـ سأهجر البيت والأزهر ··
ـ لا ضرورة لذلك ·

ـ بل ضرورى جدا ، انها حيـاة جديدة ·· ، والا طردت من الاثنين ··
ـ عين أصابت هذا الشاب !
ـ لا بقاء فى بيت جدى الا لانسـان الهى ··· أما الأزهر فاننى ما وددت مهنته قط ·· والايمان لا يحتاج الى جميع تلك التعقيدات ··
ـ ليتك كنت تهجر ذلك لشىء أفضل ··
ـ المغامرة أفضل ·· الجنون أفضل ··
فقال باصرار :
ـ لن أفهمك ما حييت ··
فقلت بسخرية :
ـ رغم حماقاتك يا شكرون فانك لم تعـرف الجنون بعد ··
ـ أيعنى هذا أنك هجرت ماضيك كله بسبب الحب ؟
ـ بل اننى بسبب الحب عرفت جنون المغامرة !
سلم محمد شكرون بالأمر الواقع ، شعرت بأنه يؤمن حقا بأن المأساة لا تخلو من جنون حقيقى ، واضطر الى أن يعدنى بالمساعدة بجس نبض مروانة وأمها باعتبار أن العاشق يحتاج الى سنيد كالمغنى ، وبخاصة بعد أن أكدت له تحرياته أن مثـل مروانة قد تقتل ولكنهـا لا ترضى بعلاقة غير شرعية ، ثم قال بامتعاض :
ـ وماذا عن مستقبلك ؟ ، فحتى المغامرون الأحرار مضطرون الى تناول لقمة ؟ ··
وأغرب شىء أننى لم أكن أوليت ذلك ما يستحقه من تفكير جاد ، وقد خطر لى للحظة أن أدرس لغـة عربية

ودينا فى مدرسة أهلية ولكنى سرعان ما نبذت الفكرة جانبـا لتنافرها مع جو المغـامرة المسحور ، وأحللت فكرة أخرى مكانها فقلت :
ـ أكون جوقة لانشاد التواشيح النبوية ؟ !
ـ سيمر زمن طويل قبل أن تحيى ليلة ثم يظل نجاحك بعد ذلك موضع شك وعناء ، والطريق الطبيعى أن تبدأ فردا فى جوقة وهو ما لا يناسبك بحال !
فتفكرت مليا ثم قلت :
ـ أفضل أن أعمل فى تختك أنت ··
ـ تختى ؟ !
ـ لم لا ؟ ·· صوتى أجمل من أى سنيد عندك ··
ـ انك ولى نعمتى ولكن ··
ـ لا لكن من فضلك ، ثم انك تحيى حفلات فى الشهر الواحد لا تقل بحال عن ثلثه ، ونجاحك مطرد ··
وصمت محمد شكرون فقلت بحماس :
ـ ولن تفتر همتى فى تكوين الجوقة الدينية الخاصة فى الوقت نفسه ·
ـ هذا ضرورى واعتمد على صـداقتى لسـماسرة الحفلات الدينية ، لا أصـدق ما نتفق عليه فانه يبـدو خيـالا ، وما زلت مصرا على أنه يمكن معالجة الأمر بصورة أخرى ·
فقلت باصرار :
ـ لا رجوع الى الوراء ولا خطوة واحدة ، وسيكون لى رداءان ، البدلة لتختك ، والجبة والقفطان للجوقة النبوية ، أليس ذلك ممتعا ؟ ! ·

ونظر نحوى فى سكون الليل وسألنى :
ـ لأى درجة تصدقنى ؟
ـ لى من العمر ما يجعلنى أصدق أى شىء ٠
ـ أريد درجة من التصديق أشد حرارة ، كثيرون لم يصدقونى ، تألمت لذلك وسعدت به ، تألمت لأن العمل الفذ يحتاج الى شهود ، وسعدت لأن اقدامى مما يعز تصديقه ، أريد ومن حقى أن أريد أن يعترف بى كانسان غير عادى ، انسان لا يستطيع أى انسان أن يهجر النعيم الذى كنت فيه بالبساطة التى هجرته بها ٠٠
ـ بدافع الحب وحده ؟
ـ الحب لا يكفى ؟! ٠٠ الحب هو الجنون خالقا !
ـ أكانت مروانة على ذلك القدر من الجمال ؟
ـ ولكن ما الجمال ؟ ٠٠ المسألة نداء يصيب مفتاحا كهربائيا ٠٠
ـ ألم ترغب أيضا فى حرمان جدك من وريثه الوحيد ؟
ـ مأساة والدى لم تفارقنى ولكن انطلاقتى كانت ملائكية لا تلوثها رغبة خفية أو ظاهرة فى الانتقام ٠
ـ ورد فعل للكبت العنيف الذى فرضته على نفسك بصفتك انسانا الهيا ؟ !
ـ أرفض هذا التفسير أيضا ، قلت لك انها كانت انطلاقة ملائكية، مثل أغنية الفجر ، قدح الحب الشرارة فكشف ضوءها عن حلم يتجسد ويتوثب لتحطيم جدار القصر والانطلاق متحديا الجاه والقيود للتمرغ فى تراب الأم الخالدة ، كما هجر بوذا قصره ذات يوم لغير ما سبب مقنع لأحد من الناس ٠٠ ويحدث ذلك فجأة ، وليس

التطور الذى يملأ دماغك الا الترسيخ العملى للفجاءة المبدعة ، واليك مثالا حيا حدث هذه اللحظة فجأة ، لقد قررت الآن ألا أكتب الالتماس ٠٠
ـ ماذا تعنى ؟
ـ الالتماس بتقرير اعانة شهرية لى من وقف جدى !
ـ أهى عودة للتفكير فى قضية عقيمة ؟
ـ لا قضية ولا التماس !
ـ ولكن ٠٠
ـ ولا لكن !
ـ فلنؤجل ذلك الى حينه ، واستمر الآن فى حكايتك من فضلك ٠
وقهقه كعادته وقال :
ـ وذات مساء زحف محمد شكرون وهو يعرج ـ وأنا أتبعه ـ نحو العربية العجوز فى مجلسها فنحت مغزلها وقامت متوجسة فقال لها :
ـ صاحبى يرغب فى الزواج من كريمتك على سنة الله ورسوله !
ذهلت المرأة ، هرولت مروانة بعيدا ، وعاد محمد شكرون يقول :
ـ ها نحن تحت أمرك ٠
وتمالكت المرأة انفعالاتها وقالت :
ـ لنا قوم نرجع اليهم ٠
وكان لهم قريب من بعيد غير محدد القرابة فكان علينا أن نقابله ٠
كان يوما عجيبا ٠

كنا أول غريبين يشقان سبيلهما فى عشش الترجمان نهارا دون أن يتعرضا للموت · حدقت فينا أعين شريرة باستطلاع ساخر وتحد ، وتوقفت الحركة دقيقة ، حركة تدريب القرود وجز الأغنـام ووزن المخدرات وجـلاء الأدوات المسروقة ودق الطبول ·

وتجمع حولنا نفر من الغلمان وراحوا يحيون الشيخ جعفر هاتفين :

شد العمة شد   تحت العمة قرد

ومضينا الى العجوز الجالس أمام كوخه وأم مروانة واقفة بين يديه ··

وتصافحنا وكان طاعنا فى السن حتى الموت فقالت أم مروان نيابة عنه :

ـ انه يرحب بكما ·

فقال العجوز يخاطبها بعد أن لكمها فى ظهرها :

ـ لأنك أنت توافقين عليك اللعنة ··

فقال محمد شكرون :

ـ صاحبى من أصل كريم ·

فبصق العجوز قائلا :

ـ طظ !

فقال محمد شكرون محرجا :

ـ وهو يعمل ··

ولكن العجوز قاطعه :

ـ لا يهمنا العمل أيضا !

فقال :

ـ أخلاقه ···

فقاطعه العجوز :

ـ ولا تهمنا الأخلاق !

فقال شكرون وهو يتحلى بمزيد من الصبر :

ـ بكل ايجاز نريد كريمتكم على سنة الله ورسوله ·

فضحك العجوز عن فم خال تماما وقال :

ـ مع ألف سلامة ·· تكلم عن المهر ··

ـ تكلم أنت ، فأنت كبيرنا ·

فانتفخ العجوز قائلا :

ـ عشرة جنيهات فى يدى هذه ·

وبسط يده ، فتحركت أم مروانة حركة غامضـة ، فقطب العجوز قائلا :

ـ بلا جهاز !

فقلت :

ـ لنقرأ الفاتحة ··

وانطلقت من حولنا الزغاريد ·

لم يعلق محمـد شكرون بكلمة احتراما لعواطفى ، وقررت من ناحيتى أن أواجه جدى بالحقيقة كما يجدر بشاب بلغ رشده وأتم مرحلة لا بأس بهـا من تعلمه فاتخذت مجلسى على مقربة من أريكته فى السلاملك وكان يسبح فى همس وقطته الرومية تهر الى يساره ، وأعتقد أنه نشأ جو من التوقع والتحفز شارك كلانا فيه ، أنا بما أضمر من نوايا وهو بفراسـته التى يقرأ بهـا ما فى الصدور ، وجاءنى سؤاله المألوف :

ـ كيف الحال ؟

فأجبت وعقلى شارد :

ـ عال والحمد لله ٠
فقال بهدوء :
ـ ستعلن الخطوبة بعد ثلاثة أشهر عقب انقضاء رمضان !
صممت على تجربة قوتي الجديدة بلا تردد فقلت :
ـ معذرة يا جدى لقد وقع اختيارى على زوجة أخرى ٠
فلم يبد عليه أى تأثر وتساءل :
ـ حقا ؟
ـ هى ارادة الله على أى حال ٠
ـ اذن هو حق ما ترامى الى ؟
فلم أنبس فعاد يتساءل :
ـ راعية غنم ؟ !
فأجبت ببساطة :
ـ أجل يا جدى ٠
قال ولعله تنهد :
ـ انك راشد وأدرى بمصلحة نفسك ٠
فسألته باهتمام :
ـ هل أطمع فى نيل رضاك ؟
فمضى يسبح فى هدوء فسألته :
ـ هل يعنى ذلك أنه على أن أغادر البيت ؟
فلم يلتفت نحوى : الى الأبد ٠
قمت فتناولت يده فلثمتها وذهبت ٠
وكان وداع بهجة أليما ودامعا ، وقد اقترحت أن

تطلب لى نقودا ولكنى صارحتها بأن لى من المدخرات ما يجاوز المائة جنيه ، وجعلت تبكى وهى تقول :
ـ الأحزان تبدأ فى هذا البيت مع الزواج ٠
وهمست فى أذنى :
ـ صدقنى ٠٠ جدك تعيس الحظ ٠٠ انه لا ينام من الليل الا ساعة ٠٠
فقلت لها صادقا :
ـ انى أحبه وأرفضه !
وغادرت البيت الذى عشت فيه أربعة عشر عاما طاهرة ٠
وذهبت مع عروسى الى شقة جديدة بالخرنفش اكتراها لى محمد شكرون وساعدنى على تجهيزها ، مكونة من حجرتين وصالة ، وبدت مروانة فى ثوبها الجديد آية من الجمال والاثارة ، ولعلى كنت أرى لونها الطبيعى لأول مرة بعد أن خلقها حمام العرس خلقا جديدا ، ولا أقول انى سعدت بذلك ، وأعترف بأن اللون النحاسى الغامق القديم كان أصبح جزءا لا يتجزأ من الصورة التى زلزلت أركان حياتى ، على أن نداءها ظل مستبدا طاغيا وسيطر على سيطرة كاملة حتى اعتبرت نفسى أسيرا فى يد قوة لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها كلسان من اللهب ، ومعتزة بنفسها وبقومها تكاد تسبغ قداسة على التراب الذى منه جاءت كوردة برية ، حتى حياءها الأنثوى كان غشاء شفافا لا ضعفا متأصلا أو رخاوة طبيعية ، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأننى حيال أنثى قوية لا عمر لها

تتدفق منها الفتنة والسحر والتحدى ، وأننى أستسلم فى رحابها كاشفا عن ضعفى بقوة وعنف ! ، وأننى أجرى كمطارد أو مجنون فاقد الوعى والحذر ، واشتهر أمرى بين صحبى الجدد فأطلقوا على « الرجل السعيد » و « الرجل الضعيف السعيد » وانهالت على التحذيرات والوصفات معا ٠

ولم ينسنى شهر العسل عملى الجديد فنشطت له بهمة عالية ، ووجدتنى هيابا بعض الشىء وأنا أدس نفسى فى بيئة جديدة وأناس جدهم فى الحياة لهو ولعب ، وكانوا يستقبلوننى هاتفين :

ـ أهلا بحفيد الراوى !

وهو نداء له مغزاه ، تبعنى كظلى فى كل مكان أختلف اليه ، تردد فى الخرنفش ، فى تخت محمد شكرون ، فى الجوقة التى تم الاتفاق على أن تعمل معى حين الحاجة ، وأخذت أحفظ وأتدرب بسرعة استعدادا للتخت والجوقة معا ، وفى شهر العسل نفسه اشتركت مع التخت فى احياء حفل زفاف بالدرب الأحمر ، ارتديت البدلة لأول مرة والطربوش حتى صاح محمد شكرون :

ـ تبارك الخلاق فيما خلق !

وارتبكت وأنا أخوض أمواج المدعوين والمتفرجين وكنت أحد اثنين فى التخت لا يستعملان الا حنجرتهما ويجلسان خاليى اليد من أى آلة ، وقدم لى محمد شكرون قدح نبيذ قائلا :

ـ انه ضرورى جدا والا انحبس صوتك ٠

فى أسبوع واحد عرفت النبيذ والمنزول ، ورددت

الغناء بقوة وانضباط وكنت الصوت الثانى فى التخت بلا جدال وقد نفخت فى السنيدة روحا جديدة هزت التخت بالجلجلة والطرب وهو يقدم :

يا ما انت واحشنى وروحى فيك

ولقينا استحسانا كبيرا ، وضمن الاستحسان أصابتنى غمزة من سكران فصاح : « يخلق من ظهر العالم فاسد » وضج المكان بالضحك حتى مال محمد شكرون نحوى وهمس :

ـ اضحك مع الضاحكين ٠

وقد فكرت فيما قال الرجل فيما بعد طويلا ، الناس يتصورون أننى كنت شيخا طيبا ثم فسدت فانقلبت سنيدا فى تخت أغنى وأتعاطى النبيذ والمنزول ، كلا ٠٠ ليس الأمر كذلك ، لقد غيرت مهنتى هذا كل ما هنالك ، استبدلت بمهنة التدريس أو الوعظ مهنة أخرى هى الغناء ، أما روحى فقد ارتفعت درجات وقلبى لم يفسد ولم يتزعزع ايمانى ، وجدى نفسه هو القائل ان الزبال نفسه يستطيع أن يكون انسانا الهيا ، ولعلى كنت محمولا بتيار عواطفى الصاخب فى ذلك الحين فلم أدرك أبعاد تجربتى كما أدركتها فيما بعد أو كما أدركها اليوم ولكننى رغم ذلك ثرت علىقول السكران واعتدتها دعابة عربيدة وظالمة ، على أى حال بدأت عملى الجديد بثقة ونجاح ولكن كان على أن أنتظر وقتا ليس بالقصير لكى أنشد التواشيح النبوية كصاحب جوقة له وزنه ، أما سعادتى فقد غطت على النجاح وعلى كل شىء ، سعادتى الزوجية ، وكنت بها فخورا ، أنوه بأسرارها

فى كافة المناسبات ، وبفضائل الحياة الزوجية ومزاياها الطيبة ، حتى ضرب بى المثل ، وفى غمرة السعادة لم أنظر الى الحياة فى بيتى الصغير بعين ناقدة ولا حتى محايدة ، واستقبلت أولى آيات الأمومة بما يشبه الوجد الدينى .

حقا كانت توجد لحظات خائنة حتى فى أيام السعادة الخالصة ...

ولكن ما هى اللحظات الخائنة ؟

هى اللحظة التى تنفصل فيها عن تيار حياتك فتقف على ربوة فوق الشاطىء لتراقبه بدهشة .

فى تلك اللحظة كنت أشعر بأن ثمة شخصا قد ضحك على ، قد جرعنى مقلبا ..

وأسأل نفسى عما حدث .

أو أنظر الى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة للانتقام منها .

ما معنى ذلك ؟

كأننى أمقتها فجأة وبلا مقدمات .

ولكنها لم تكن الا لحظة عابرة ، كتقلص عضلة طارىء ،ثم يعود التيار الى مجراه السعيد المبلل بأنفس العشق المستعر .

وأعجب لطاقتى فى معاشرة الفوضى ، فأنا لا أتذمر على حين أن مروانة لا تحسن تنظيف الشقة ، ولا طهى الطعام ، وتمضى حافية نصف عارية منتفشة الشعر ، تتحدى الخبال وتناقر الهواء ، وتسحبنى من يدى

لزيارة أمها وقريبها العجوز فى معسكر الشياطين ليضحك المخرف ويقول لى :

ـ ألم يكن الأفضل أن تعمل اماما لجامع ؟

أو يبارك بطن زوجتى قائلا للجنين :

ـ شرفنا وكن قاتلا فقد ضقنا باللصوص والمهربين !

ويسخر من أصلى الكريم قائلا :

ـ من جدك الراوى ؟ .. أنا جدك الحقيقى ، واهبك هذه المرأة الجميلة التى تمتص قذائف غرائزك الشريرة ..

فأقول له :

ـ جدى من رجال الله ..

فيقهقه قائلا :

ـ نحن رجال الله حقا ، الله المنتقم الجبار خالق الجحيم والزلازل ، انظر الى هؤلاء (مشيرا الى معسكر المتشردين) انهم رجال الله ، صورة منه فى جبروته وانتقامه ..

والتقيت فى تلك الأيام بجارة أمى فى بين السورين ، عرفتها ولم تعرفنى ، اعترضت طريقها وقدمت لها نفسى ، ذهلت ودعت لى طويلا ، وتذكرت أننى لم أكن أعرف اسم أمى كما أن بهجة لم تكن تعرفه ، كنت أناديها « أم » فتجيب حتى أعجزها الموت عن الاجابة ، وسألت الجارة عن اسمها فقالت :

ـ ليرحمها الله .. كان اسمها سكينة !

وشعرت باغراء فى طرح المزيد من الأسئلة عن أصلها وتاريخها ولكننى أخمدته ، ربما احتراما

للذكرى ، وشددت على يدها ومضيت فى سبيلى ، هكذا عرفت اسم أمى مصادفة ٠٠

وسوف أنجب من الذكور أربعة ، وسوف تمضى الحياة بعد انطفاء شعلاتها ، وسوف تجىء أيام الجفاف والجفاء والوحشية ٠٠

طالما سرنى أن يقال هذا الفتى الذى هجر قصر النعيم ينشد الحب والحرية ٠٠

وطالما استعذبت موقف مروانة المحب من الطقاطيق التى أحفظها لتخت محمد شكرون بقدر ما رحمت موقفها الكاره من القصائد والتواشيح التى أعدها لجوقتى الخاصة ٠٠

وطيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنبيذ والمنزول وشعرت بأن المعركة تستغرقنى من الفجر حتى الفجر ٠

وتأوهت قائلا :

ـ أى عبودية !

وجاءت أيام الجفاف والجفاء والوحشية ٠

ها هى مروانة قوية متحدية سليطة اللسان طويلة اليد كأنما خلقت لتقاتل ٠

وقلت لها مرة :

ـ للرجل احترامه ٠

فقالت لى :

ـ وللمرأة احترامها ٠

ثم قالت بوحشية :

ـ لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان ٠٠

فقلت محزونا :

ـ أهذا جزاء من أعد لك البيت والأثاث ؟

فصاحت بى :

ـ انى أكره رائحة البيوت !

وأوغلنا السير فى أيام الجفاف والجفاء والوحشية ٠

وتابعنى محمد شكرون بأسى ، وقال :

ـ انى أخاف الحب الجنونى وأفضل الاعتدال ٠

فقلت بحزن لم يدرك مداه :

ـ انى ضحية الشهوة العمياء ٠

ـ الحياة الزوجية تمر بحالات مرضية حتمية تحتاج الى حكمة الأطباء ٠

فقلت بامتعاض :

ـ لقد دخلت منطقة اليأس !

ذلك أننى وجدت أن الشركة تتحول الى معركة ، مضمرة حينا ومعلنة حينا ، وأن مروانة اذا تجردت من رمز الاثارة الجنونية فانما تتمخض عن لاشىء ألبتة ، أو تتمخض عن ذئبة ٠

وهى اذا غضبت حطمت ما بين يديها ، مزقت ملابسى ، طوحت بكراسة الأغانى والتواشيح من النافذة ، التحمت معى فى عراك ، وأصيح بها :

ـ انك أبغض الى من الموت ٠

فتصيح بى :

ـ انك أبغض من القيح ٠

وقد تمتد فترات البغضاء ، وقد تتسلل اليها الهدنة بفضل الأولاد غالبا ، وعند ذاك قد تشتعل

انفعالات الرغبة من جديد ، إشتعالات خاطفة ، تعيد ذكرى الأحلام من بعيد ، أجل من بعيد ٠

★ ★ ★

وسألته باهتمام :
ـ ولكن ماذا أفسد حياتك الزوجية ؟
ـ ألم أوضح ذلك فى سياق الحكاية ؟
ـ كلا فيما أعتقد ، ما زلت فى حاجة الى تحديد أسباب واضحة ٠٠
ـ ان الذى ربطنى بها حال جنونية ، فلما زالت وجدتنى مع امرأة لا أعرفها ولا أجد مبررا لبقائها معى ، ولا شك أن سلوكى العام نم عن مشاعرى الدفينة فأثارها من ناحية أخرى ٠
فقلت :
ـ تزول حال الجنون ولكن يبقى الأولاد ٠٠
ـ الأولاد أطالوا عمر زواجى ولكنهم لم يؤمنوه ضد الخواء ، مروانة مجرد اثارة ، ليست امرأة ، لا هى ربة بيت ولا هى أم ولا هى سيدة بالمعنى ، وصفاتها الجوهرية خليقة بأن تخلق منها رجلا ، بل قاطع طريق ٠٠٠
ـ وهى ألم تحبك ؟
ـ لا أظن ، ربما فورة جنونية عابرة ، أو مغامرة استطلاعية ، لم أكن أمثل الرجل الذى يمكن أن تحلم به ، لقد جمع زواجنا بين مغامرين وكان عليه أن يموت بمجرد أن تتحول المغامرة الى روتين ٠٠ ، أظن الأمر واضحا ؟

ـ أجل ، شكرا ٠٠
ـ وكان لى أحلامى الخفية ، كنت أحلم بالهروب من الواقع ، من البيت ، أحلم بالتوحد فحتى أولادى كانوا يختفون من رؤيا الحلم ، ولكن الى أين ؟ ، وكان عملى لا يترك لى مجالا للنظر الى فوق ، فأوساط المنشدين لا قمة لهم يتطلعون اليها ، الى ذلك فالله لم يهبنى القناعة والرضى بالمقسوم ٠
والأهم من ذلك أننى لم أكن أحلم وحدى ، أجل كانت مروانة تحلم أيضا ، وتمسكت بالغضب عقب مشاجرة ، وسدت الأبواب فى وجه الصلح ، وتحدتنى بنظرة باردة وهى تقول :
ـ يجب أن نعيد النظر فى حياتنا ٠٠
ولمست فى نبرتها تصميما حيا فانقبض صدرى وتمتمت :
ـ حياتنا ؟
ـ أقول لك صراحة انه من الظلم أن نكلف هذا البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك ٠
فتابعت أصوات الأولاد المتلاحمة باشفاق وقلت :
ـ كل الأزواج يفعلون ذلك ٠
فقالت بهدوء مخيف :
ـ ولكنى أريد أن أذهب ٠٠
فسألتها ببلاهة :
ـ الى أين ؟
ـ الى أهلى !
تماسكت رغم حنقى وتساءلت :

ـ ألا تعجبك الحياة فى هذا البيت ؟
فأجابت بقوة :
ـ كلا ، أنت تتوهم أنك صـاحب فضـل ، هذا هو نقصك !
فقلت بنبرة مرتعشة :
ـ أظننى ضحيت بالكثير ·
ـ انى أولى الضحايا !
ـ اسمعى ··
ولكنى أمسكت تجنبا للشجار فصاحت :
ـ لقد كرهت هذه الحيـاة حتى الموت !
فنفخت قائلا :
ـ الأولاد ·· الأولاد ··
ـ من حقى أن آخذهم معى ·
ـ لكى ينشئوا فى عشش الترجمان ؟
ـ لكى ينشئوا رجالا !
ـ انك لمجنونة !
ـ أنت المجنون وأقسم على ذلك ، لا عاقل يعيش من حنجرته كالنساء !
ـ لا أمل يرجى من مناقشتك ·
ـ دعنى أذهب ·
ـ ولكن عليك أن تتركى لى الأولاد ·
ـ ماذا تفعل بهم ؟ ، انك تسـتيقظ من نومك قبيـل العصر ، ولا ترجع الى بيتك الا مع الفجر أو بعـده ، وعلى حال لا يعلم بها الا الله ، فكيف يعيشون ؟ ، هل تعنى حقا ما تقول ؟

فشعرت بالقهر وقلت :
ـ لذلك يجب أن يبقى هذا البيت من أجلهم ··
ـ انى أرفض ذلك ··
ولم ينته الحوار بحسم الموضوع ·
فكرت بالأولاد طويلا ، أيقنت أنه لا حياة لهم معى ، وأن على أن أتحلى بالصبر من أجلهم مهما كلفنى ذلك، غـير أن مروانة حسمت الأمر بطريقتهـا الخاصـة فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خاليـا لا يتردد فيه نفس ، وذهبت من توى الى عشش الترجمان فبلغتها مع الصباح الباكر ·
وجاءتنى أم مروانة بوجه متجهم وقالت لى :
ـ اذهب بسلام وافعل ما يفعله الرجال ولو مرة !
قلت لها :
ـ الأولاد ·
قالت بازدراء :
ـ انهم أولادنا !
وجاء العجوز فى ثلة من الرجال المفترسين وقال :
ـ أنت رجل خائب فارجع الى بيتك ·
وهمهم الرجال بألفاظ مبهمة فلم يغب عنى الخطر المحدق بى ، وعاد العجوز يقول :
ـ طلق ، أعطها حقهـا كاملا ، واذا كان الشرع يعطيك حقوقا الآن أو مستقبلا فانى أنصحك بأن تنزل عنها صونا لحياتك ، ارجع قبل أن تطلع الشمس على وجهك فقد أقدم على شر كبير اذا رأيتـك فى ضـوء الشمس ···
وذهبت من توى لأطلق ··

وأجلت التفكير فى المشكلة لحين بلوغ البكرى السن التى أستحقه فيها ، تأجيل أو هروب اذا شئت ، كنت على يقين من أننى لن أطالب بأولادى بجدية حقة ، معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قوما يتخرج فى معسكرهم عتاة مجرمى القاهرة ، ومعناه من ناحية أخرى أن أعيدهم الى حياة لا أمل لأى قدر من الرعاية فيها ، فهؤلاء الأولاد من حفدة الراوى قد كتب عليهم الضياع حيثما كانوا ، ولن تكتب لهم النجاة الا اذا كتبت للمجتمع كله وبصورة حاسمة ، هكذا ذهبت مروانة طاوية معها قصة الحب والجنون والخيبة ، وقصة الجفاف والبغض ، لم يبق منها الا ذكرى الشهوة المذهلة ، والقوة المتحدية ، والعجرفة الصلبة ، وهى مثل العاصفة مخيفة وضارة ومثيرة للاعجاب ، وبضياع الأولاد تسلل الأسى الى أعماق نفسى ليقيم فى حجرة الأحزان ملتحما بذكريات أمى وأبى ·

ولم يكن ممكنا أن أواصل الحياة بهوادة كأن لم يقع شىء ·

وكان محمد شكرون يتابعنى بحذر واشفاق ، فسألنى ذات يوم :

ـ حتى متى تمضى فى ترديد الأغانى وتعاطى النبيذ والمنزول ؟

مع وجود مروانة والأولاد كان ثمة حياة متكاملة أيا تكن ، أما الآن فالسؤال يبدو معقولا ، وقلت له وأنا لا أعنى ما أقول :

ـ حتى الموت !

فقال جادا غاية الجد :

ـ آن لك أن ترجع الى جدك ··

قلت :

ـ لقد انتهى الشيخ جعفر الراوى ··

ـ يمكن أن يبدأ من جديد ، علينا أن نحاول ·

ـ انى أرفض المحولة ·

ـ عن كبرياء ؟

ـ بل عن تسليم بالواقع الحى ·

ـ أى واقع يا رجل ؟

ـ انه لا يرضينى ، ولكنى رفضت المهنة الدينية رفضا لا رجوع فيه ، الحياة التى رسمها جدى لى مرفوضة تماما ، وهو لن يقبلنى ـ اذا قبلنى ـ الا بشرط الرجوع اليها ··

ـ لعله يمنحك حريتك الشخصية ؟

ـ كلا ، انك لا تعرفه كما أعرفه ، وانى أرفض أن أعرض نفسى لتجربة ذليلة ·

فقال باخلاص لا يداخلنى فيه شك :

ـ انك صديق عزيز ومن واجبى أن أصارحك بأنك تمارس حياة لا تليق بك ، فلا أنت مطرب ولا أنت ملحن ، ويجب أن تفكر فى مستقبلك بجدية أكثر ··

ـ هذا ممكن بعيدا عن جدى !

ـ أراك غير سعيد الآن ··

ـ ربما ، ولكننى قمت بمغامرة جنونية سأظل فخورا بها ما حييت ، وانى فخور أيضا بأننى أتكيف مع أى مستوى للحياة دون تذمر أو ضعف ، تجدنى طافحا

بالبشر والقوة ســواء عشت حياة الأعيــان أوحيــاة الصعاليك ، وها أنا أتمسك بالصعلكة وأرفض محاولة الرجوع الى حيـــاة القصر ، أرفض أن أكون شيخا محترما وزوجا نبيلا وممارســا للطقوس والتقــاليد الرفيعــة لا لأننى أختـــار ذلك بارادتى الحرة ولكن احتراما لرؤيا جدى وطمعا فى تركته ..

ـ وماذا عن مستقبلك ؟

ـ سأفكر جديا فى دراسة الموسيقى والتلحين عند الشيخ طاهر البنـدقى اذ لا يمكن أن تمضى الحيــاة بلا طموح ..

كانت مروانة رمزا للحيــاة الماضــية ، كما كانت العذر الثابت لتقبل حياة عادية بلا طموح ، فلما ذهبت وجدت نفسى عاريا ·

وكان على أن أعيد النظر فى حياتى ·

وفى تلك الفترة القلقة من الحيـــاة عرفت هــدى صديق ..

٦

كان محمد شكرون يحيى حفلا فى حديقة لبتــون ، وفى الاستراحة دعى مع أفراد تخته الى مقابلة هدى هانم صــديق فى بنوارها ، وكانت تنتظـرنا وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس سيدة شديدة السمرة بدا من تأدبها أنها وصيفة ·

راعنى أول ما راعنى بهــاء منظـرها ، وأناقتهــا المحتشمة ، واعتزازها بنفسها الذى لا يجاوز حــدود الأدب ، وهالة من الجاذبية الرصــينة ، أما جمــالها الأنثــوى فيتركز فى عينيهــا السوداوين واســتدارة وجهها ، وكانت على وجه اليقين فى الحلقة الرابعة ·

ترك منظـرها فى نفسى أجمــل الأثر ، ووقفت بين الزملاء الكهول مزهوا ببدلة جديدة وبصحة وشــباب وقامة فارعة ·

دعتنا للجلوس وأمرت لنا بالمرطبات وقالت موجهة الخطاب لمحمد شكرون :

ـ صوتك عذب وتختك ممتاز ، انى من أسرة تعشق الأصوات الجميلة ·

فلهج محمدشكرون بالشكر ونوه بذكرى المغفور له

والدها الذى يحتفظ له أهل الفن بأجمل الذكريات قال :

ـ طالما سمعت أستاذى الشيخ طاهر البندقى يقول عن قصره انه كان معقل الموسيقى الشرقية ٠

فابتسمت الهانم فى رضى ، والتقت عينانا أكثر من مرة ، فقال محمد شكرون مشيرا الى فى مباهاة :

ـ زميلى جعفر حفيد سيد الراوى ٠

فتساءلت باهتمام :

ـ حقا ؟ !

ـ انه يهيم معنا حبا فى الفن ٠٠

ـ جميل ، ولكن هل يرضى الراوى الكبير عن ذلك ؟

فأجبت :

ـ ندر أن يرضى جد عن حفيد !

ونظرت السيدة نحو محمد شكرون قائلة :

ـ سوف نتقابل عما قريب ٠

انصرفنا سعداء ، وفسر لى محمد شكرون قولها قائلا :

ـ هذا يعنى أننا سندعى قريبا لاحياء حفل فى بيتها ٠٠

وقال لى باهتمام :

ـ انها من آل صديق ، كريمة الرجل العظيم ، أرملة واسعة الثراء والثقافة ٠٠

وصمت قليلا ليزن كلامه ثم قال :

ـ أعتقد أنها مالت اليك ٠٠

انبعث فى نفسى طرب وسألته :

ـ ألك خبرة بتأويل نظرات النساء ؟

ـ أجل ، لمحتها أكثر من مرة فى أثناء الغناء وهى تنظر نحوك حتى قبل أن تعرف نسبك ٠٠

ـ ليصدق حدسك يا صديقى ٠٠

فقال محذرا :

ـ ولكنها سيدة محترمة ٠

فقلت محتجا :

ـ يا للأسف !

وفكرت بها مليا ، انها شىء نفيس بلا شك ، ولا يقلل من قيمتها أنها تكبرنى على الأقل بعشر سنوات ، بل زادها ذلك ملاحة فى نظرى ، أما الجنون الذى اجتاحنى ذات يوم فيبدو أنه لا يتكرر ٠

وقال لى محمد شكرون :

ـ يا لها من فرصة !

ـ ماذا تقصد ؟

ـ امرأة ممتازة كالقشدة ٠٠

ـ هبنى لم أحبها ؟

ـ أهذا ممكن ؟ ٠٠ ألم تشم رائحتها المسكرة ؟

فضحكت عاليا ، وكان محمد شكرون قد أحب راقصة وتزوج منها ووفق فى حياته الزوجية غاية التوفيق ٠

★ ★ ★

وذهبنا الى بيت آل صديق بالحلمية احتفالا بختان طفل ، ذكرنى السلاملك والحديقة بقصر جدى ولكن الحديقة كانت أصغر كما أن سور البيت كان قصيرا لا يحجبه عن العالمين ، وأقيم لنا سرادق مكشوف فى

الحديقة التى عبقت بشذا زهر البرتقال مما يدل على أن الوقت كان ربيعا ٠

وغنى محمد شكرون بانبساط حقيقى ورددنا الغناء بحماس غير عادى ، وارتفع صوتى وأنا أردد :

كان قلبى عليك عليك قلبى

وعقب الوصلة الثانية اندلع النبيذ ق رأسى وتسلطن المنزول فجلست تحت شجرة برتقال فى اعياء ٠٠

وجاءت هدى هانم صديق تتفقد أحوالنا وتجاملنا فقمت لها وأنا أكاد أترنح فتمتمت :

ـ أنت فى حال !

فقلت ممتنا :

ـ هذا ما يفعله بى السرور ٠

وأمرت لى بقدح ليمون بالصودا ثم قالت :

ـ تعجبنى روح المغامرة !

فأدركت أنها تشير الى صعلكتى فى تخت محمد شكرون فقلت :

ـ انى أقرر مصيرى بارادتى الحرة ٠

فابتسمت قائلة :

ـ المغامرة الحقة فى رأس الانسان !

ـ ماذا تعنين يا سيدتى ؟

فتجاهلت السؤال وقالت :

ـ ترامت الى أنباء مثيرة عن خلافك مع جدك !

فقلت باستسلام :

ـ ها هى شهرة ضلالى تذيع بين الصفوة ٠

فابتسمت ابتسامة جذابة وذهبت ٠

وشعرت بأن باب حياة جديدة ينفتح لى رويدا ٠

وعقب السهرة مضى بى محمد شكرون الى مقهى باب الخلق ، قال لى بجدية :

ـ علينا أن نتدبر أمرنا ٠

فتساءلت متخابثا :

ـ أى أمر أيها البلبل ؟

ـ لا تتغابى ، عرفت من وصيفتها أنهم عرفوا عنك كل شىء ٠٠

ـ كل شىء !

ـ السؤال له مغزاه الكبير ٠

ـ والجواب له عواقبه الوخيمة !

ـ رغم كل شىء ٠٠

وحدق فى باهتمام ثم واصل :

ـ رغم كل شىء فأنت مدعو الى لقـاء ق حديقـة لبتون ، انى مكلف بابلاغك ٠٠

فذهلت وتمتمت :

ـ هذا يفوق تصورى !

ـ ولكنه الواقع دون زيادة ٠

ـ أجل ٠

ـ علينا أن نتفق على خطة ٠

ـ ولكنك لم تسألنى عن عواطفى ؟

ـ لا أظنها عدائية !

ـ طبعا ٠

ـ يكفى هذا ، وفى اعتقادى أن الهانم وقعت كما وقعت أنت ذات يوم ٠

ـ لا تبالغ ٠
ـ خبرنى ألا يسعدك أن تتزوج منها ؟
ـ أنت تتخيل أنها تفكر فى الزواج ؟
ـ انها ترفض العلاقات غير المشروعة ٠٠
ـ تتزوج من صعلوك ؟ !
ـ انى أعرف قصة أمير هجر قصره ليتزوج من صعلوكة ٠
فضحكت فسألنى :
ـ ماذا عن قلبك ؟
ـ انى معجب بها ، بشخصيتها وجمالها ، لا شك أن الارتباط بها يسعدنى ٠
ـ هذا هو الحب ، أو هو نوع من الحب ، أو هو استعداد طيب للحب ٠
ـ ليكن ٠
ـ اذأ فعليك أن تبدأ احتراما لكرامتها ٠٠
ـ مزيداً من الشرح من فضلك ٠
ـ لقد بدأت هى خطوات ثابتة ، وها هى تدعوك للقاء ، فهل تذهب لتنتظر كالبنت أن تفاتحك هى بحبها ؟ ٠٠ كلا ٠٠ يجب أن تكون أنت البادىء ، احتراما لكرامتها كما قلت ٠٠
ـ أترى ذلك ؟
ـ المسألة ذوق أولا وأخيرا ، لا تنس التضحيات المتوقعة من ناحيتها ، حقا انها سيدة نفسها ، وأغنى الأسرة ، ولكن حتما ستتمزق أواصر قربى وعلاقات

أسرية بسبب الزواج ، لا شك فى ذلك ٠٠ ، وانها لشجاعة لأنها ستصمد فى وجه ذلك كله ٠٠
ـ لولا أننى مررت بتجربة مشابهة لما صدقت الواقع ٠٠
ـ بلى ، ولكنك مررت بنفس التجربة ، ولا تنس أنها تريدك وأنت مقطوع السبب بالراوى، والزوج السابق لمروانة وأبو أربعة أبناء بعشش الترجمان ، انه المستحيل عندما يصير ممكنا ٠٠
وفكرت فى الأمر من شتى جوانبه بعد أن وجدت من عقلى وقلبى اقتناعا به فقلت :
ـ اذا وقع هذا الزواج المذهل فسأجد نفسى مضطرا الى التخلى عن العمل فى التخت ؟
ـ هذا واجب لا شك فيه ٠
ـ ولكن كيف أرضى بألا يكون لى عمل الا زوج الهانم ؟ !
فقال بثقة :
ـ سيكون لك عمل ، لا أدرى الآن ماذا يكون ، ولكن توجد أعمال كثيرة تحتاج الى رأس المال والمجهود البشرى وأنت تملك هذا المجهود !
ثم وكأنه يشجعنى :
ـ هاك مغامرة جديدة أيها المغامر الأعظم ٠
فقلت بفتور :
ـ المغامرة الحقة استجابة لنداء مجنون ، أما هذه الخطوة فتتحقق فى رحاب الروية وتحسب بالتفكير والمنطق أنتقل بها من حال الى حال ٠

ـ الى حال أفضل !
ليكن ، انى أجرى كالعـادة وراء الجديد المثير ، معى قـدرتى العجيبـة على التكيف والاستهـانة بالصعاب ، ألست أعيش وكأننى نسيت أبنائى الأربعة رغم أن جرح القلب لا يريد أن يندمل ؟ !
وذهبت الى لقاء هدى فى الموعد المضروب بحديقة لبتون ·
أقبلت عليها بشجاعةوثبات وثقـة بالنفس فذابت الفوارق وتم لقاء بين رجل وامرأة ·
جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست « أم حسين » الوصيفة غـير قريب ، ورغم عظمتهـا الذاتية اعتراها شىء من الارتباك فقالت :
ـ أرجو ألا أكون أزعجتك بدعوتى ؟
فقلت بثقة :
ـ كونى على يقين من أنها جاءت محققة لأحلامى ·
فتساءلت برقة أنثوية :
ـ حقا ؟
ـ كنت أتمناها ولا أدرى كيف أحققها ·
ـ حقا ؟ ·· ولكن ·· ولكن لماذا ؟
ـ هذا حديث يطول ، ولكن يحسـن بى أن أقنـع بالاستماع ··
فقالت بلهفة :
ـ لا أهمية لذلك ، لماذا كنت تتمناها ؟
فقلت بصوت دافىء :
ـ كما يجدر برجل أحبك من كل قلبه ·

فأسـبلت جفنيها موردة الخدين والتفت بالصمت فى جو من القبول والرضى والسعادة ·
ـ أجل من كل قلبى ··
تذكرت الموقف فيما بعد فلم أجد فيـه ما يستحق الخجل ، كان عقلى وقلبى مقتنعين بها ، كنت مرحبـا تماما بالارتباط بها وبلا أدنى طمع فى مالهـا ، ومن ناحية أخرى فان حبها لى ـ وهو مؤكد ـ يقتضى ذلك الاعتراف من ناحيتى تحية لكرامتها ، فضلا عن ذلك كله فاننى لم أكذب أو لم أكذب بالقـدر الذى يجعلنى كذابا ·
وناقشنا مستقبلنا بكل صراحة ، قلت :
ـ لن يتصل ما انقطع من علاقة مع جدى ··
وقلت أيضا :
ـ قد لا يحرمنى ميراثى كله ··
ثم قلت بوضوح :
ـ سأكون تعيسا لو عشت بلا عمل ··
فقالت بهدوء باسم :
ـ هذه الهموم لا تخلق عقبـة حقيقيـة فى طريق الحب ·· ، أما جدك والميراث فلا يهمنى ، وأما العمل فانى أعلم أن الرجل لا يعيش بلا عمل ··
ثم وهى تضحك :
ـ ولكن هل تعتبر عملك فى التخت عملا حقيقيا ؟
ـ كان حركة فى مغامرة أكبر ، هذا كل ما هنالك ··
ـ أوافقك كل الموافقة ·
ولقد فكرت فى حبنا طويلا ·

من ناحيتى صادفت سيدة جميلة ، كريمة الأصل ، مثقفة ، عاقلة رصينة ، واعدة بمعاشرة سعيدة ، فملت اليها كما ينبغى لى وأحببت فكرة الارتباط بها .

أما من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هذا الحب ؟ انى ضائع ، طريد ، شبه عاطل ، شبه جاهل ، لا مستقبل لى ، فكيف يمكن تبرير هذا الحب ؟

لكنها كانت هى فى الواقع التى تحب حبا حقيقيا ، حبا بلا مبرر ، فوق التبريرات والأفكار ، ولعل هذا الحب لا يخلو من رغبة فى انتشالى من الضياع واعادة خلقى من جديد ، فكما توجد فى الحب سادية وماسوشية توجد كذلك أحيانا أمومة ورغبة حميمة فى الانقاذ .

هذه أفكار عن الحب الذى ربطنى بهدى فانتهى بعقد قراننا بعد أن مزق أواصر أسرتها .

لم أكن وقتذاك أفهمه بهذا الوضوح الذى يتبدى لى به اليوم ، أما فى حينه فقد فسرته التفسير الذى يرضى شبابى وغرورى ويعوضنى عن الاهانة التى لحقتنى من جراء هجر مروانة لى .

وودعت محمد شكرون وزملائى من أفراد التخت ، كما ودعت أفراد فرقتى الدينية وكانوا متطوعين يعملون مع أكثر من منشد ثانوى تبعا لظروف العمل ، ودعى الجميع الى حفل زفافى الذى أحياه محمد شكرون ، وانبسطنا غاية الانبساط وكأننا نودع عهد النزق ونصفيه .

وقلت لمحمد شكرون :

ـ لن يفرق بيننا شىء .

فاغرورقت عيناه وهو يقول :

ـ معاذ الله يا أعز الناس ..

وتم الاحتفال فى بيت الحلمية ـ بيت هدى ـ فلم يشهده من أسرتها أحد ، واقتصر على الجارات ، وأمل محمد شكرون أن يعلن جدى رضاه على نحو ما ، خطاب أو هدية أو طاقة ورد ، ولكن لم نلق من ناحيته الا الصمت .

وكان محمد شكرون قد زاره لمناسبة عيد الهجرة وقال له وهو يقبل يده :

ـ فرض على أن أنهى الى فضيلتكم أنباء حسنة عن جعفر .

فتجاهل جدى قوله تماما ، فقال محمد شكرون :

ـ انه يبدأ حياة جديدة مع سليلة الشرف هدى هانم صديق .

ولكنه واصل تجاهله وفتح موضوعا جديدا لا صلة له بى .

غير أن محمد شكرون قال لى :

ـ لقد لمست رغم ذلك تأثره ، مثل تقبض يده على المسبحة عندما جاء ذكرك ، وعندما ترزق بمولود فاذهب به اليه ليباركه ..

ولكننى لم أكن أهتم برضى جدى .

ولم أكن أخلو من انفعالات حنق عليه .

استقبلت شهر العسل الثانى فى حياتى ، الأيام الهنيئة التى تمضى فى رحاب العاطفة الخالصة والحب

المتكامل ، ينعم فيهـا الزوجان بعطلة سعيدة قبل أن يرجعا الى الحياة ليتغلغلا فى أعماقها أكثر ·

وجدتنى على رغمى أقارن بين مروانة وهدى ·

امرأتان مختلفتان جـدا ، مروانة عبقرية فى لعبة الجسد ، ترجع الرجـل الى عهـد الفطرة ، أما هدى فترجع الجسـد الى مسـتوى القلب ، ورغم أننى لم أحترق الا أننى شـعرت بطمأنينة ورسـوخ ودوام ، ورغم مشاعرى الفياضة وحنانى المتدفق فقد افتقدت جحيم مروانة الأبدى ·

وفى توقيت رائع قالت لى هدى :

ـ أود ألا تبقى يوما أكثر بلا عمل ··

فقبلتها امتنانا فقالت بحذر :

ـ وحتى ادارة أملاكى لا تعتبر عملا مقنعا ولا هى ترضى طموحى ··

فتساءلت برقة :

ـ اذن لك طموح ؟

ـ ألا تحب أن تكمل دراستك الأزهرية ؟

ـ كلا ·

ـ لماذا وجهك جدك تلك الوجهة ؟

ـ انه ذو تفكير خاص وسوف أحدثك يوما عن رأيه فى الانسان الالهى ·

ـ سأصارحك بما أفكر فيه، يجب أن تدرس فى بيتك·

ـ دراسة نظامية ؟

ـ نعم ، حتى البكالوريا ، ثم تتخصص فى دراسة عليا ، مثل الحقوق مثلا ، وتعمل محاميا ذات يوم !

ـ يلزمنى عشر سنوات ·

ـ لم لا ؟ ·· التعلم فى ذاته عمل ، وأنت فى الخامسة والعشرين وستجد فيها ميزة لاستيعاب الدراسة ·

ففرحت بالفكرة وقلت :

ـ انى أحب التعلم ، ولن يهمنى ما فاتنى من عمر ، ثم اننى أريد عملا لا وظيفة بالمعنى التقليدى ··

وسرعان ما بدأت بعزم حديد ·

خرجت من عصر البطالة المقنعة والبطالة الحقيقية، وغطى التعـلم على احسـاسى بأننى زوج بلا عمـل وبخاصة واننى لم أعترف بادارة الأملاك كعمل حقيقى فهى لم تكن تعنى أكثر من تحصيل ايجارات والاشراف على اجراء بعض الترميمات والتجديدات أو توكيـل بعض المحامين عند الضرورة ·

وحققت تقـدما مذهلا واسـتعنت أحيـانا ببعض المدرسين ·

وفى أوقات الراحة كنا ـ أنا وهدى ـ نختلف الى المسرح أو صالات الطرب فهى مغرمة بذلك كله ·

وكنت أشرب رغم تأففها فتقول لى برجاء :

ـ اشرب ولكن لا تسكر ··

أما المنزول فقد أخذت على عهدا بألا أقربه ، وكلما رأتنى جالسـا مع محمـد شكرون ذكرتنى بالعهد ، ولكنى نبذته بارادة قوية ، وعبرت الفترة الحرجة بعزم صادق حتى ضحك محمد شكرون وقال لى :

ـ انك شيطان فى تكيفك مع العربدة ، ملاك فى تكيفك مع الاستقامة ··

فقلت له :

ـ انى مصمم على أن أكون شيئا ·

مارست حياة رائعة ، استعادت من ناحية سعادتى فى أسطورة أمى ، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء الذى نعمت به فى بيت جدى ، ولكن تفشى فيها القلق المنبعث من رغبة حادة فى تحقيق الذات ·

أريد أن أكون شيئا ، ولكن ما عسى أن يكون هذا الشىء ؟ ، القانونى الضليع ؟ ، أم المحامى الناجح ؟

الحق أنى فتنت بمواد الدراسة المتنوعة ، واستوعبتها بمقدرة شخص ناضج ، وانجذبت لها بأقوى مما انجذبت الى علوم الدين ، وكنت أحفظ المقرر وأفيض عنه فيما يهمنى من فروع المعرفة ، فقرأت كثيرا فى التاريخ والفلسفة والنفس والاجتماع ، ومضيت أمتلىء بحب الحقيقة ·

★ ★ ★

وقهقه عاليا ثم قال لى :

ـ تصور الرحلة من أحلام العفاريت الى حب الحقيقة ! ·· ما رأيك ؟

فقلت :

ـ رحلة عظيمة ··

أعجبنى بصفة خاصة المنهج العلمى الذى يتحقق به أكبر قدر من الدقة والموضوعية والنزاهة ، هل نستطيع أن نفكر بنفس الأسلوب فى سائر شئون الحياة ؟ ، لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة بنفس الدقة والنزاهة الموضوعية ؟ ··

وكانت هدى تساعدنى ، فهى مثقفة ، حاصلة على شهادة مدرسة أجنبية ، درست مبادىء العلوم والرياضة والآداب واللغات كما درست العربية على مدرس خصوصى ، وهى غاية فى الذكاء والاستيعاب ، وقد ساعدتنى أكثر مما ساعدنى أى مدرس خصوصى·

وكانت تقول لى :

ـ الشهادة لا تهم فى ذاتها ولكنها الوسيلة الوحيدة المعترف بها للعمل ، ثم انها تضفى على الدراسة جدية أكثر ··

ولم تفتر همتها فى مساعدتى حتى بعد أن تغير مزاجها العام بالحمل والوحم ·

جمعنا رغم فارق السن والعلم حب يزداد مع الأيام رسوخا وهو بمأمن من النزوات وردود الفعل العنيفة ··

لقد انتقلت من الفوضى والمخدرات الى حياة زوجية نقية وتحصيل للمعرفة بلا حدود ، فى نظام دقيق أفقدنى الكثير من مظاهر الحرية السطحية ، ولكنه فتح لى أبواب الحرية المضيئة التى يسمو بها الانسان على ذاته بالوعى ، الوعى الذى يسعد به الانسان الحر حتى وان أبصر بقوة أكثر مأساة الحياة الخافية·

★ ★ ★

وهنا قاطعته قائلا :

ـ حدثنى عن تجربتك مع الحقيقة والحرية والمأساة ·

فقال ضاحكا :

ـ الى من توجه كلامك ؟ ، انك فى الواقع تخاطب انسانا لا وجود له ، لم يبق منه الا الخرابة التى تجالسك الآن فى مقهى ودود بالباب الأخضر ، لقد مات ، لقد دفنت أكثر من شخص عاشوا فى جسدى متتابعين ولم يبق الا هذه الخرابة ٠

وضحك مرة أخرى ثم واصل :

ـ ولكنها خرابة غنية بالآثار على أى حال ٠

وتنحنح ثم قال :

ـ لقد عشقت العقل وقدسته فأحببت تبعا لذلك الحقيقة ، العقل هو ما يعمل بالمنطق والملاحظة والتجربة ليصل الى حكم نقى تماما مما يخل بالمنطق والملاحظة والتجربة ، وهو ما أسميته بالحقيقة ٠

وهذا العقل يعتبر مخلوقا حديثا نسبيا اذا قيس بالغرائز والعواطف ، فالذى يربط الانسان بالحياة غريزة ، والذى يربطه بالبقاء غريزة ، والذى يربطه بالتكاثر غريزة ، ودور العقل فى كل أولئك هو دور الخادم الذكى ٠٠

حسن ، كيف يمكن أن ينقلب الوضع ؟

أى أن يقرر العقل أولا ثم يستغل الغرائز لخدمته ٠

هل يمكن أن يقتنع فرد بضرورة فيقرر قتل نفسه ؟ ، ان الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لا حصر لهم ولكن لم يقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقى ، اذن فقد عشقت العقل وحلمت طيلة الوقت بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هدية الهية لنا ، أحلم بألا يكون لنا من محرك الا العقل ، ولا هدف الا العقل ، ولاسلوك

الا من وحى العقل ، أحلم بحياة عقلية خالصة يستوى العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكن الغرائز على أرض الطاعة والعبودية ، حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملا مثل « أعرف بقلبى » أو « ألهمتنى عواطفى » أو « التعبير الوجدانى للحياة » ، وصببت غضبى على حجم الشعور واللاشعور ، وجبل فرويد المطمور تحت الماء الا قمته ، اذ أن المسألة ليست مسألة حجم ولكنها مسألة القيمة أولا وأخيرا ، أردت لقمة الانسان ـ عقله ـ أن يحكم وأن يسيطر ، حتى فى شئون الغذاء والجنس ، والحب نفسه أى قيمة له اذا لم يقتنع به العقل تماما ؟ ، الحب الأعمى سيظل أعمى ويتمخض بعد الاشباع عن خواء مكررا مأساتى مع مروانة ، لذلك أتمنى أن يلعب العقل دوره فى حياتنا الحميمة كما يلعبه فى المعمل ، وبنفس اليقظة والنزاهة والموضوعية ، ويجب بالتالى أن تتغير أغانينا وأشواقنا وأحلامنا ٠

ولا أزعم أننى استطعت أن أرتفع الى هذا المستوى، بل لعل عجزى كان عنصرا هاما فى المأساة ، كما أننى لا أدعو الى تجاهل الغرائز أو الاستهانة بها ولكن أتشوف الى تجنب آثارها المدمرة على الحقيقة ، تصور أن نقيم أنفسنا دون خضوع للأنانية ، أن نقيم أوطاننا بلا تأثر بما ندعوه الوطنية ، وبصفة عامة أصبح الانسان العاقل حلمى كما كان الانسان الالهى من قبل ٠٠

قلت له :

ـ هذه الصورة العقلية للعالم صـورها أناس فى كتبهم فى صورة مخيفة ··

ـ أعـلم ذلك ، لأنهم عالجوها بقلوب رومانتيكية مريضة وسخيفـة ، ولكنى أومن بأن العقـل سيغنى الانسان ذات يوم عن غرائزه وعواطفه فتصبح جميعا مثل الزائدة الدودية ·

ـ ولكن كيف انقلبت هـذا الانقلاب الخطـير من النقيض الى النقيض ·· ؟

ـ كما قلت لك من قبـل انى أتحرك فى الحيـاة بالطفرة ، لقد اكتشفت عالم العقـل فجأة ففتنت به ، وأيقنت أننى كنت أغامر فى خواء ، وأنى مدعو الآن حقا للمغامرة فى عالم الفكر، هذه هى المغامرة الحقة··

فسألته باهتمام :

ـ وماذا عن الحرية ؟

ـ مثل المغـامرة ، تمارسها أحيانا كمتعة للغرائز كما استمتعت بمروانة والنبيذ والمنزول ، هى عبودية متنكرة فى لباس حر ، الحرية الحقيقية وعى بالعقل ورسالته وأهدافه وتحديد الوسـائل بحرية الارادة وتنظيمها التنظيم الدقيق الذى يجريها مجرى القيود ، فهى حرية فى لباس عبودية ، وجرت حياتى على هذا النحو فى رحاب بيت المنيل ، فثمة ساعات للمذاكرة ، وساعات للقراءة الحرة ، وساعات للمناقشة والنزهة والحب ، على طريق طويل رفعت على ساريته راية العقل ··

وهنا قلت له :

ـ هلا حدثتنى الآن عن المأساة ؟

فنفخ وهو يقول :

ـ انتظر قليلا ، فثمة مأساة خاصة ، ولكنى أود أن أعرض عليك رؤياى عن مأساة عامة أولا ، هى مأساة الانسـان العاقل ، فقبل خلق العقـل كان الانسـان منسجما مع ذاته وحياته ، حياة صراع قاسـية ولكن يبدو الا حيلة له فيها ، مثله مثل أى حيوان آخر ، فلما أن وهب العقل ، وشرع يخلق الحضارة ، حمل أمانة جديدة ، مسئولية لا مفر منها ، وفى الوقت نفسه هو غير أهل لتحملها ، بدأ يدرك النظـرة الشاملة ، وأن حياته على الأرض هى حياة رجل واحد رغم التناقض الظاهرى ، ولكنـه كان وما زال يمـر بفترة انتقـال تتواجد فيها الغرائز والعقل معا ، فما يقول به العقل تعارضه الغرائز ، وما يزال النصر مقررا حتى اليوم للغرائز ، على الأقل فى الحياة العامة ، لم يظفر العقل بالسيادة المطلقة الا فى العـلم ، فيمـا عدا ذلك فهو يخضـع للغرائز ، حتى ثمـار العلم نفسـه تلتهمهـا الغرائز ، وعلى حين يحتفظ العقل بلغته الخاصة فى مجال البحث فاللغة التى تستجيب لها الملايين ما تزال هى لغة العواطف والغرائز ، أغانى الجنس والوطن والعنصرية والأحلام السخيفة والأضاليل ، هذه هى المأساة العامة ، ولن تنقشع سحبها الحمراء الا حين يعلو صـوت العقـل وتتراجع الغـرائز نحو الذبول والفناء ··

أما مأساتى الخاصة فنشأت من الصراع بين عقلى وبين ايمانى الراسخ بالله .

واعترضنى السؤال ، كيف تصون ايمانك اذا أردت أن تجعل من العقل هاديك ومرشدك ؟ !

تزعزعت ثقتى فى الايمان الخالص كما تزعزعت فى لغة القلب .

وعلى العقل أن يحل بقوته هذه المشكلة .

والقول بأنه لم يخلق لذلك اعتراف بالعجز ليس الا، واقتراح بديل له نسميه القلب أو البداهة اعتراف آخر بالافلاس .

★ ★ ★

ـ وماذا قال لك عقلك ؟

ـ **عجز تماما عن ادراكه أو تصوره ولكنه لم يجد** مفرا من افتراض وجوده ، وهذه هى المأساة ، واذا قرر أناس أن المشكلة مفتعلة ، وأنه يمكن أن نعيش دون التفكير فيها ، فقد كل شىء معناه مهما خلقنا له من معنى بقوة الخيال والارادة والشجاعة ، وانى لأحسد الذين يعيشون عيشة كبيرة ويموتون راضين بلا اله ..

وكاشفت هدى بهمومى ، وهى مؤمنة ايمانا بلغ من قوته أنها لم تبال يوما بالصلاة أو الصوم ، فقالت لى :

ـ لا يمكن تقبل الكون بغيره . ألا ترى الى عمليات الخلق المتواصلة تحت أعيننا فى عوالم النبات والحيوان والانسان ؟ .. فلا يمكن الشك فى قوة الخلق ..

قلت لها :

ـ أريد علاقة حميمة واقتناعا لا مفر منه مثل ١ + ١ = ٢

فقالت هدى :

ـ نحن نتكلم عن القلب كنبع للايمان ولكن تذكر أن الله لم يعبده الا الانسان العاقل ، فالعقل فى الواقع هو أساس الايمان ولكن عجزه النسبى عن ادراكه ـ مع حرصه عليه ـ جعله يرجع الايمان به الى عضو آخر هروبا من التناقض .

فقلت لها :

ـ لقد أدرك الانسان الحياة والموت والخوف فافترض عقله فرضا لينقذ الأمل ، وحتى موسى نفسه أراد أن يرى الله !

★ ★ ★

عند ذاك سألته :

ـ ماذا عن ايمانك اليوم يا جعفر ؟

فطوح برأسه الى الوراء مرسلا بصره الضعيف نحو جدول النجوم الجارى بين مئذنة الحسين من جهة وأسطح البيوت العتيقة من جهة أخرى وتمتم :

ـ انى عاجز عن الكفر بالله !

★ ★ ★

ثم واصل حديثه قائلا :

ـ تقدمت فى الدراسة ، أحرزت النجاح بعد النجاح ، اتسعت مداركى ، تنوعت ثقافتى ، أنجبت

أربعة ذكور ، عشت فترة تعتبر من أغنى وأسعد فترات حياتى ·

وكان محمد شكرون هو الذى يوصل النفقةالشرعية الى أم مروانة ، وعندما بلغ ابنى الأكبر السن التى أستحقه فيها قررت أن أسترده ، وخاطبت فى ذلك هدى فلم تمانع والحق يقال ، ولكن تبين لى أن مروانة تزوجت وأنها رحلت هى والأولاد الى احدى الواحات ، بل قيل انها رحلت الى ليبيا ، واشتد حزنى طويلا ··

ولم تهن صداقتى بمحمد شكرون ، كنا نصلى الجمعة معا فى جامع الحسين ثم نتناول الغداء فى الحلمية ، وقد اقتصر اسلام شكرون على صلاة الجمعة والامتناع عن الخمر فى رمضان ، وكان يؤكد لى أن الفنانين أمثاله سيحاسبون حسابا ملطفا تراعى فيه ظروف حياتهم ومتطلبات مهنتهم ، وكان نجاحه كمطرب من الدرجة الثانية قد تأكد ، كما أن ألحانه الشعبية ذاعت وطبعت فى أسطوانات ناجحة ، وقد انتقل هو وأسرته الى روض الفرج ولكنه لم ينجب ذرية ·

وقد ظل صديقى الوحيد حتى تعرفت على زملاء من خان جعفر ممن سبقونى فى التعليم وعملوا محامين ومدرسين ، وقد أفدت منهم فى دراستى ، ولم يقف أثرهم عند هذا الحد كما سوف ترى ···

وسعدت بالأبناء أكثر من أى شىء آخر ، كانوا آيات فى الجمال والصحة والنضارة ، وكان البكرى صورة طبق الأصل من جده الراوى ·

أما جدى نفسه فما عرفت عنه الا اليسير مما كان يبلغنى عن طريق محمد شكرون ·

طعن الشيخ فى السن ، اعتكف فى بيته بصفة شبه دائمة عدا الخروج لصلاة الجمعة ، وخصص ليلة واحدة لاستقبال الأصدقاء والمريدين ، وأحيانا تستغرقه الشيخوخة فيخيل الى من يعاشره أنه نسى همومه الماضية والراهنة ، فبت أشك فى أن أبقى مجرد ذكرى فى روحه ·

وتتابع النجاح والتفوق والسنون حتى نلت درجة الليسانس فى **الحقوق** ·

وأتمت هدى نعمتها على ففتحت لى مكتبا للمحاماة فى ميدان باب الخلق ، وأثثته بمكتبة غنية وحجرة استقبال فاخرة لا يوجدان عادة الا فى مكاتب كبار المحامين !

هكذا بدأت مرحلة جديدة من الحياة ·

٧

كان وكيل المكتب هو محور النشاط فيه ، فهو سمسار قضايا صغيرة تليق بمحام مبتدىء ، وأنا أعمل فى الواقع كتابع له وفى نطاق نشاطه ·

ولكن مكتبى صار ملتقى للأصدقاء الذين اتخذت منهم مرشدين فى دراستى القانونية ، وكانوا فى الأصل أقران طريق من بعيد ، وفى ذلك الملتقى الدائم تم الغزو السياسى لروحى ···

أود أن أقول لك اننى لم أكن مقطوع الصلة بالسياسة كما قد تظن ، ففى بيت جدى كان يزوره فيمن يزورونه قوم من رجال السياسة ، وكانوا جميعا ذوى طابع واحد ، فهم يمجدون الصفوة التى يجب أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن ·

وكان الحديث يدور كثيرا حول الدستور ، لا باعتباره أساس الحكم للشعب ، ولكن باعتباره وثيقة تمنحهم شرعية الحكم وتؤكد ذاتهم فى مواجهة الحاكم ، وكأن الميدان لا يشغله الا الحاكم والصفوة ·

وكانوا يستحوذون على اعجابى بفخامة منظرهم وشواربهم الكثة ولحاهم المهذبة ، وكانوا يتحاورون بهدوء وتؤدة ، ويتكلمون كثيرا عن العلم والتعليم

والبعثات وتجديد الفكر الدينى ، ولم يخفوا احتقارهم للغوغاء وحكم الغوغاء ، وأكدوا على حاجة الشعب الى التربية الطويلة والتوعية المتواصلة حتى يحق له قدر من المشاركة المتواضعة فى الحياة السياسية ·

وسمعت جدى يتساءل مرة :

ـ اذن فالسياسة فى نظركم مثل التصوف مضنون بها على غير أهلها ؟

وجاء الجواب بالايجاب فتساءل جدى :

ـ ومن يرعى مصالح الغوغاء ؟

وكان الجواب :

ـ نحن أصحاب المصالح الحقيقية ، فنحن أهل الزراعة والتجارة والصناعة ، أما الغوغاء فحاجتها لا تعدو حرفة للرزق وبعض الخدمات ··

وملت فى ذلك الوقت الى الاقتناع بتلك النظرية ، والتسليم بها كوسيلة ناجعة لانتظام الأمور ، وحمدت الله على انتمائى فى النهاية الى الصفوة لا الغوغاء ·

وقد مرت بنا أيام مثيرة ، تعالى فيها اسم الشعب حتى ملأ الفضاء ، وتدفقت أمواج المظاهرات من الغوغاء كالطوفان ، فراقبتها من فوق السطح بذهول وسرور ·

بيد أننى لم أنفعل بالسياسة بقوة ملحوظة أبدا ، وآمنت بأنه يمكن أن أبلو الحياة حلوها ومرها من غير أن أطرق للسياسة بابا ·

★ ★ ★

فى مكتبى بميدان باب الخلق غزتنى السياسة بعنف لأول مرة ، وعلى غير توقع ·

اصطرعت فى حجرة مكتبى أفكار الليبرالية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية والسلفية الدينية والفاشستية · وجدتنى فى دوامة صاخبة دار بها رأسى ، وعملا بمبدئى فى تقديس العقل نزعت اليه أسأله الرشد وسط ذلك الطوفان ·

وذات يوم سألنى الأستاذ « سعد كبير » ونحن بصدد استعراض المذاهب ، وسوف أقتصر على ذكر اسمه لخطورة الدور الذى لعبه فى حياتى ولتفاهة أثر الآخرين ، سألنى :

ـ ما أنت ؟

فقلت بعد تردد :

ـ لا شىء ·

فقال بحنق وكان شديد الحساسية والعصبية رغم ذكائه وشمول ثقافته :

ـ انه الموت ·

ـ ولكنى دارس مجتهد ممن يقدسون العقل ·

ـ وهل يتم للعقل مضمونه دون أن يبدى رأيه فى نظام الحكم البشرى ؟

ـ ولكن ·· ولكن السياسة مصالح ·

ـ المصالح تهدى الرجل العادى الى حزبه ولكن العقل يستطيع بنوره أن يميز بين الحق والباطل ··

فتساءلت مبتسما :

ـ أين توجهنى مصالحى فيما تظن ؟

ـ ولكنك بالعقل تستطيع أن تتجاوز موقفك ···

ـ على أى حال يجب أن أعطى مهلة أطول للتفكير ·

وأفضيت بهمومى الى هدى باعتبارها الصديق الأول الذى لا أخفى عنه شيئا ، فقالت بلا تردد :

ـ ألاحظ أن السياسة مفسدة للعقل ·

فقلت لها وكأنما أعلن عما يضطرم فى أعماقى :

ـ ذلك يتوقف على العقل نفسه ··

فقالت لى بايمان :

ـ فى السياسة يجد العقل نفسه فى محنة ··

ـ ربما ، ولكن لن يكون الحل فى الهرب ·

الحق أن التفكير أصبح جزءا لا يتجزأ من حياتى ، وما سمعته فى مكتبى قد تحدانى بعنف ، فرحت أتساءل عن معنى ذلك كله ، ورغم عواطف الصداقة المتبادلة فاننى لم أشك فى أن بعضهم ينظر الى « وضعى الطبقى » نظرة عدائية أصيلة ، وبالتبعية جعلت ـ لأول مرة ـ أنظر الى هذا الوضع باعتباره مثار نزاع سياسى اجتماعى ، كأنما استيقظت فجأة لأجد نفسى مستلقيا فوق فوهة بركان ·

أجل فاننى بصفتى حفيد الراوى أنتمى الى الطبقة الاقطاعية ، وعليه فمصلحتى تتفق مع حكم الصفوة ، ولعلها لا تتناقض بحدة مع السلفية الدينية ، ولكنى لا أتفق مع الليبرالية الشعبية ، وأما الشيوعيون والاشتراكيون فهم أعدائى الطبيعيون ، مثل عداوة القط والفار ، هكذا فكرت ، ثم تساءلت هل يتيسر لى

رغم ذلك أن أحكم العقل بنزاهة بين هذه المذاهب ؟ ، أو تخونني العواطف فأستخدمه كعبد ذكى ؟

بوسعى أن أوثر السلامة بتجنب السياسة ولكنني آمنت بأن ذلك لا يتفق بحال مع احترام العقل وتقديسه · السياسة هى الحياة ·

ولم ينقطع الحوار بينى وبين « سعد كبير » فقد وجدت فى موقفه التحدى الحقيقى الذى يواجهنى بكل صلابة ·

قلت له مرة :

ـ السياسة عالم رحيب ، مفاتنه موزعة على جميع المذاهب !

فتقلص وجهه الأسمر ، دقيق القسمات ، وقال :

ـ مغفور لك ترددك فلا بد للفكرة من مهلة حضانة ·

ـ صبرك ، انى أجد فى الصفوة نبلا وثقافة وعراقة تاريخية ؟

ـ ممكن فى نظام اجتماعى عادل أن يرتفع كافة الأفراد الى مرتبة الصفوة ··

فتفكرت مليا ثم قلت :

ـ وفى الليبرالية حرية وقيم وحقوق للانسان آية فى الجمال ؟

ـ استغل ذلك كله لخدمة طبقة معينة ·

فقلت بالاخلاص نفسه :

ـ وفى الشيوعية عدالة كاملة تجد المذاهب البشرية فى مناخها تفتحها وازدهارها ··

ـ لعل هذا أقل ما يقال فيها !

ـ وفى الدين مزايا متوازنة لا تعد ولا تحصى ·

ففقد أعصابه هاتفا :

ـ اللعنة !

فقلت دون مبالاة بعصبيته :

ـ لا بد من الحقيقة ولو طال التخبط ··

وكانت هدى فى الحقيقة ليبرالية أصيلة ترى فى النظام الانجليزى مثلها الأعلى ، وكانت تتابع تأملاتى باهتمام مشوب بالقلق حتى سألتها :

ـ لم تقلقين يا هدى ؟

فقالت لى بصراحة :

ـ التفكير فى السياسة قد يتبع بنشاط سياسى وهو أمر لا يخلو من خطورة ·

فقلت لها متنهدا :

ـ الأمان جميل ولكن فى الحياة أشياء أهم من الأمان ··

ـ لذلك أشعر أحيانا بأن بيتى السعيد أصبح مهددا ··

فقبلتها وأنا أقول :

ـ كونى شجاعة كعهدى بك دائما ··

ـ أصبحت الموضة هذه الأيام أن يؤمن الشباب بالشيوعية ··

ـ ولكنى أفكر يا عزيزتى فلا تهمنى الموضة بحال من الأحوال ·

وواليت الدراسة والتفكير ·

★ ★ ★

وهنا قهقه عاليا بصوت أزعج النائمين والهائمين فى الحارة التاريخية فسألته :

ـ ماذا يضحكك ؟

ـ سأعترف لك بسر لم أبح به لانسان ، ولا لزوجتى الصديقة ٠

ـ حقا ؟ !

ـ خطر لى ذات مرة أنه توجد أوجه شبه بين حياة النبى وحياتى !

وتريثت قليلا ولكنى لم أعلق فواصل حديثه :

ـ فقد توفى والدى وأنا دون الوعى وتوفيت أمى وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمرى فتكفلنى جدى ، ثم تصورت خروجى من قصر جدى نوعا من الهجرة ٠

ـ ولكن النبى لم يهاجر من أجل المغامرة ٠

ـ كلا ٠٠ كلا ٠٠ انه تشابه وليس تطابقا ٠٠ ثم جاء زواجى من سيدة ذات حسب ونسب تكبرنى فى العمر ، وكيف وجدت فى المناخ الذى هيأته لى فرصة طيبة للدراسة والتفكير ، تأملت ذلك فخطر لى أننى سأكون صاحب رسالة أيضا ٠٠

فتساءلت ضاحكا :

ـ رسالة دينية ؟

ـ لتكن رسالة من نوع جديد ، ولكن سرعان ما فتنتنى الفكرة فبت أسيرا لها ٠٠ وواليت الدراسة والتفكير ٠

وكنت أحذر نفسى دائما من خدع الغرائز والعواطف لأنقى تفكيرى من كل شائبة ٠

* * *

ووصلت الى أولى النتائج ، وهى أن نظامنا الاجتماعى غير معقول ، ظالم ، وأنه مسئول عن أدوائنا من الفقر والجهل والمرض ، وأننى لست من الصفوة كما توهمت كثيرا ولكننى فرد من عصابة ، واحتجت هدى على هذا الوصف ونوهت بشرف أجدادها ، ولكننى أخذت فى تحليل أسباب الثراء من النهبات والانتهازية والاستغلال والعسف والقوة حتى اقتنعت بأنه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ٠٠

وشجعنى سعد كبير قائلا :

ـ هذا اتجاه طيب يعد بخاتمة طيبة ، ولكن عليك أن تبدأ بالمادية الجدلية والمادية التاريخية ٠٠

فقلت بثقة :

ـ انى أقف موقفا واحدا من جميع الفلسفات ، والفلسفة الماركسية ليست الا فلسفة من الفلسفات فلماذا تتحول الى عقيدة ، ولماذا تفرض نفسها بالقوة والدكتاتورية ؟

ـ ليست فلسفة من الفلسفات ، ولكنها أنزلت من سماء التأمل النظرى لتطبق على حياة الناس ، ولتعطى للبشرية أملا جديدا ، فهى تستحق أن تكون عقيدة ٠٠

فقلت متململا :

ـ الجزم بالمادية ليس أقوى فى شرعة العقل من الجزم بالله ٠٠

فقال بازدراء :

ـ مازلت مثاليا !

فهتفت بغضب :

ـ لا ترم بالصفات الغريبة والتزم بالمناقشة الموضوعية ·

فرجع الى الهدوء وقال :

ـ ادرس ، يلزمك مزيد من الدراسة ·

فقلت :

ـ ولكننى غير مقتنع بالنظرية على حين أننى أرى العدالة الاجتماعية بديهية لا تحتاج الى نظرية ·

وانقطعت زمنا للدراسة والتفكير ·

وصار صدرى معتركا لصراع كالجحيم ·

فى ذلك الوقت لم أستمتع بصداقة زوجتى الا قليلا ، ولم أهنأ بملاعبة أبنائى الا خطفا ، ولاحت لعينى فكرة الرسالة كقوة واعدة ومسيطرة ، ومتواضعة فى الوقت نفسه لأنى نذرت نفسى لانقاذ البشرية فى مصر فحسب !

وكنت أفكر وأعاود التفكير ، وأوجه الى نفسى التحذير تلو التحذير من أن ينزلق تفكيرى فى مزالق العاطفة أو العقائد الموروثة ·

ولكى تتضح لى الأمور قررت أن أسجل أفكارى على الورق ·

فسألته باهتمام :

ـ وفعلت ؟

ـ نعم ·

ـ هل طبعتها فى كتاب ؟

ـ كلا ، سبقتنى الأحداث ·

ـ أتذكر خلاصتها ؟

قال وهو يضحك :

ـ عرضت تاريخا موجزا للمذاهب السياسية والاجتماعية ، من الاقطاع حتى الشيوعية ، ثم عرضت مشروعى الذى يقوم على أسس ثلاثة ، أساس فلسفى ، مذهب اجتماعى ، أسلوب فى الحكم ، أما الأساس الفلسفى فمتروك لاجتهاد المريد ، له أن يعتنق المادية أو الروحية أو حتى الصوفية ، والاساس الاجتماعى شيوعى فى جوهره يقوم على الملكية العامة والغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة والغاء أى نوع للاستغلال وأن يكون مثله الأعلى فى التعامل « من كل على قدر طاقته ولكل على قدر حاجته » ، أما أسلوب الحكم فديموقراطى يقوم على تعددالأحزاب وفصل السلطات وضمان كافة الحريات ـ عدا حرية الملكية ـ والقيم الانسانية ، وبصفة عامة يمكن أن تقول ان نظامى هو الوريث الشرعى للاسلام والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية ··

وأعطيت نسخة من المخطوط للأستاذ سعد كبير وأنا أقول :

ـ هاك رأيى ··

فتناوله بدهشة وهو يتمتم :

ـ حقا ؟ !

فقلت باصرار :

ـ ولن تخيفنى نعوتك المشهورة ، برجوازى ··

تصالحى .. تجميعى ، فمن حقى أن أنشىء مذهبا جديدا اذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة ..

فلاحت فى عينيه نظرة ارتياب وقال :

ـ بشرط أن تنشىء حقا لا أن تلفق .

فقلت غاضبا :

ـ جميع المذاهب أخذ وعطاء .

وقرأ سعد كبير المخطوط فى مكتبى حتى فرغ منه فى حوالى الساعتين أو أكثر ثم تنهد طويلا وتمتم :

ـ لا فائدة !

فانتظرت متوثبا فعاد يتمتم وكأنما يحادث نفسه :

ـ سمك لبن تمرهندى !

فقلت له :

ـ أفصح .

فقال بعصبية :

ـ تلفيق .. أحلام يقظة .. خيال .. تجميع ما لا يجتمع .. لا شىء ..

ـ أهذا هو رأيك النهائى ؟

ـ ماذا تتوقع ؟

ـ أتوقع أن تقتنع برأيى .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم نكون جمعية .. هيئة .. حزبا ..

فضحك ضحكة باردة وتمتم :

ـ يا للخسارة !

فقلت محتدا :

ـ انكم مسلوبو الارادة والتفكير !

فقال بجدية تامة :

ـ أنت تعلم على الأقل أننا جادون ، وأننا نحمل رءوسنا على أكفنا ، وأننا نؤمن بالانسان !

ـ انى أومن بالانسان أكثر منك ، لا أصدق أن مؤمنا حقا بالانسان يمكن أن يقتنع بنظام دكتاتورى ، وانى جاد أيضا ، وعلى استعداد لحمل رأسى على كفى ..

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ سأكون جمعية أو حزبا ..

وقام سعد كبير وهو يقول بفتور :

ـ لنا رجعة ورجعة ورجعة ..

وقبل أن أشرع فى الدعوة الى تكوين الجمعية شاورت زوجتى فى الأمر فانزعجت جدا ، وكانت قد قرأت المخطوط بعناية ، وقالت :

ـ انك قانونى وتعلم أن دستور البلاد يعتبر الشيوعية جريمة .

فقلت :

ـ الشيوعية شىء ومذهبى شىء آخر ..

ـ انك تدعو الى نظام اجتماعى شيوعى وهذا هو ما يهم القانون وواضعيه ..

ـ يمكن أن أغير صياغة البند الثانى فانى أجد مثلا أن كلمة الاشتراكية مقبولة ثم اننى مؤمن بالله رغم أننى لا أريد فرض الايمان على أحد ، وأخيرا فاننى مستمسك بالنظام الديموقراطى كما يمارس فى الغرب ، ألا يبعد كل ذلك الشبهة عنى ؟

ـ لا أظن يا عزيزى ، فانى أراك فى الواقع شيوعيا قحا فى الأمـر الجوهرى الذى يهم من يملكون ومن لا يملكون ..

فقلت برقة :

ـ المسألة أنك يا هدى لا تؤمنين بى ..

ـ انى ديموقراطية ، وأرى الديموقراطية نظـاما لا ينقصـه كى يبـلغ الكمـال الا الرعاية الانسـانية لجماهير الشعب ! ، وانه لا يداخلنى شك فى أن المواطن الانجليزى مثـلا يتمتع بحيـاة أفضـل من المواطن الروسى ..

ـ أما أنا فلا أشاركك الايمان بذلك ..

فقالت بشىء من الاستياء :

ـ حسن ، طالما اتفقنا فى كل شىء ، والآن آن لنا أن نختلف !

وكان سـعد كبـير يحـاول من ناحيته اقناعهـا بالماركسية .

كان الأصـدقاء يتناولون العشـاء كثـيرا على مائدتنا ، ودعوت محمد شكرون معهم ولكنه لم يرتح الى صحبتهم وتلقى مناقشاتهم بالتثاؤب .

وأظن أنه يجب أن تعرف شيئا أكثر عن سعد كبير ، لقـد كان أحد الأصـدقاء الذين يجتمعون فى مكتبى للمناقشة ، يمثلون فى مجموعهم جميـع المذاهب حتى المذهب الاقطاعى البائد ، ولكنه كان أشدهم حماسـا وتفاعلا مع مصيرى ، كان محاميا مبشرا ، راسخا فى مادته ، ذا ثقافة واسعة ، ومقدرة فى الجدل والمحاضرة ،

وكان ذا طبيعة حادة متماسكة ، شديد اليقين بما يؤمن لحد التعصب الأعمى ، من الذين يعملون بكل قواهم فى اتجاه واحد ، ولا يتوانى عن تحطيم خصـمه بكل الوسائل البلاغية والمناورات الغريبة التى تثير ثائرة من يحترم العقل ويقدسه مثلى .

وقد لمحت فى عينى هـدى اعجابا به واسـتسلاما لجدله الحماسى العنيف .

وذات يوم قال لى محمد شكرون :

ـ أصحابك لا يعجبوننى ..

فقلت له متوددا :

ـ ولكنهم طيبون .

فقال بفتور :

ـ ربما ولكن المدعو سعد كبير ليس بالطيب .

ـ ولكنه رجل ممتاز بكل معنى الكلمة .

ـ ربما .. لكنه أذكى مما يجب .

فضحكت مؤمنا بقوله فعاد يقول :

ـ لا تفتح بيتك لكل من هب ودب .

فآنست من صـوته ما يشبه الاحتجاج أو التحذير فاشتعل وجدانى وسألته :

ـ ماذا تعنى يا شكرون ؟

فقال متهربا :

ـ المسألة أننى لا أرتاح اليه .

فقلت بحدة شديدة :

ـ أفصح !

ـ انه من النوع المعتد بنفسه ولكنه ليس أهلا للثقة ·

ـ انك تقصد أشياء أكثر من ذلك ··

ـ أبدا ، وأقسم على ذلك برأس الحسين !

بعد ذلك الحوار لم أرجع الى طمأنينتى السابقة ، وجعلت أراقب ما يدور حولى بدقة وسوء ظن ، وفى الوقت نفسه أبت على كرامتى أن أغير من نظام الأشياء ، ولو بدر منى أمر كهذا لأغضبت بلا شك سيدة أبية مثل هدى ، ولسقطت فى نظرها ، ولكنى جعلت أراقب وأحترق من شدة الانتباه والقلق ، كان ينهمك فى الحديث معها فتنهمك معه ، ووضح لى أن أسلوبه فى الحوار يعجبها ويبعث فيها حيوية دافقة وأنها تبدو فى شوق دائم الى المزيد منه ·

وقلت لها فى أعقاب سهرة :

ـ لن أدهش اذا اعترفت لى فجأة بأنك شيوعية !

فابتسمت متسائلة :

ـ أغرك اقبالى على حديثه ؟

ـ وتأثرك به ··

ـ انه شخص ممتاز ولذلك فاننى أرثى له !

كانت هدى فى ذلك الوقت فى الخمسين أو جاوزتها بقليل وكان سعد كبير فى الثلاثين ، ولم يكن بقى فى قلبى لها الا صداقة عميقة ، ورغم ذلك ركبنى الهم ، ورحت أتساءل عما عناه محمد شكرون ، هل رأى أكثر مما رأيت ، هل كتم عنى أشياء ، هل تعانى هدى أزمة من أزمات الشيخوخة ؟ ، ولكنها كانت وما زالت مثالا

للعقل والرزانة ، ولم أعثر من ناحيتى على اشارة واحدة تستحق الريبة ، لا اشارة ولا حركة ولا كلمة ، ورغم ذلك كله اهتز عقلى المقدس ، وسقطت فريسة لانفعالات مبهمة ···

ثم اجتاحتنى المأساة كأنها زلزال غير مسبوقة بأسباب واضحة ··

★ ★ ★

وصمت مليا فتساءلت :

ـ المأساة ؟

فضحك ولم ينبس فعدت أتساءل :

ـ المأساة ؟ ·· ماذا قلت ··

ـ وقعت المأساة وأنا أتأهب لتكوين الحزب ·

ـ ثم ماذا ؟

ـ وأتهيأ لخوض غمار المعركة متحديا اليسار واليمين معا ·

وواصل حديثه متنهدا :

ـ كنا مجتمعين فى مكتبى أنا وسعد كبير منفردين ، وجرى الحديث ، حادا من ناحيته كالعادة وحادا من ناحيتى على غير العادة ··

قال ثائرا :

ـ انك تتوهم أنك صاحب مذهب ميتافيزيقى اجتماعى سياسى ، ان أى مذهب خليق بأن يستغرق عمرا كاملا فى تكوينه ، ولكن القارىء يطلع على المذاهب كلها فى عام أو عامين ، وقد يتراءى له أن يقوم

بعملية انتخاب من المذاهب يظنها تفكيرا وهى ليست الا عملية انتخاب للجمع بين متناقضات يستطيعها أى مخلوق ، ويمكن بهذه الطريقة أن يكون لدينا مذاهب بعدد غير الأميين فى العالم !

وصحت به على غير توقع منه :

ـ وقح ·· قليل الأدب ··

نظر الى بذهول وتمتم :

ـ ماذا ؟

فصحت باصرار :

ـ وقح ·· قليل الأدب ··

فتساءل بحنق :

ـ أنسيت أنك تخاطب أستاذك ؟ !

وثبت عليه ·

لطمته ، لكمنى ، اشتبكنا فى صراع مخيف ، لم يوجد من يخلص بيننا ، كنت أقوى منه وكان أكثر شبابا ، ولما بدأت ألهث تناولت قطاعة الورق ··

★★★

وصمت مليا ·

ورحت أتخيل المنظر ·

ثم واصل حديثه ·

ـ صورة وجهه لا يمكن أن تنسى ، أعنى بعد أن غرزت النصل الحاد فى عنقه ، وجهه وهو ينطفىء هابطا الى قرارة الظلمة ، وهو يتخلى عن المعركة

ويستسلم للمجهول ، وهو يتخلى عن الجدل والذكاء والمجد وكل شىء ·

هتفت :

ـ قتلت يا جعفر ؟

ـ أصبح جعفر الراوى قاتلا ·

ـ يا للخسارة !

ـ وقفت أتأمل جثته الملقاة بين المكتب والكنبة الجلدية فى ذهول بارد سرمدى وأنا أشعر بأننى تخففت دفعة واحدة من كافة أعباء الحياة وانفعالاتها ثم غصت فجأة الى أعماق دنيا الحلم فرأيت من كوة فى جدارها المتهافت شبح المأساة وهو يجرى بعيدا عنى ، فى كون آخر مضاد لا تربطنى به صلة بشرية ، وسمعت صوتا ، لعله صوتى أو صوت آخر يهتف مذبوحا « يا عقلى المقدس ، لماذا تخليت عنى ؟ » ·

ـ يا للخسارة ··

ـ من رئاسة حزب الى التأبيدة !

وبعد صمت ثقيل قصير سألته :

ـ أكان للقتل ما يبرره ؟

ـ من ناحية فللقتل ما يبرره دائما ومن ناحية أخرى فلا شىء يمكن أن يبرر القتل ·

ـ أعنى هل وجدت فى شكوكك ما يبرر القتل ؟

ـ لا شىء ألبتة ، صدقنى ، وجاء انهيار زوجتى حزنا على مؤكدا لحماقتى ، كأن المأساة قد وقعت لتسخر من عابد العقل ومقدسه ، هذا كل ما هنالك ··

ـ وهل ورد فى المحكمة ذكر لشكوكك ؟
ـ كلا ، أبيت ذلك كل الاباء . فصور الموضوع فى المحكمة باعتباره نزاعا بين شيوعيين أدى الى القتل .. ، وكنت فى السجن أصر على اعتبارى مجرما سياسيا ولكنى اعتبرت مجرد قاتل ، وحتى اليوم فانى مصر على أنى مجرم سياسى ، ما رأيك ؟
ـ لعلك مجرم نصف سياسى !
ـ ولكن لولا السياسة لما وقعت الجريمة أصلا ..
ـ ربما .. ولكن ماذا كان موقف جدك ؟
ـ قبيل الحادث بأيام جاءنى محمد شكرون وأخبرنى أن جدى مريض جدا ، واقترح على أن أزوره مصطحبا زوجى وأبنائى ، شاورت هدى فى الأمر فرحبت به جدا ، وأجلت الزيارة ليوم الجمعة ولكن الجريمة وقعت مساء الخميس ، ولم يصلنى من ناحيته رسول أو رسالة ولا عرفت حتى ان كان علم بجريمتى .
المهم أنى طالبت فى السجن باعتبارى مجرما سياسيا رغم أنه لا توجد تفرقة فى المعاملة بين المجرم السياسى والمجرم العادى ، واشتهرت بذلك فصرت به دعابة ، واعتبر أحيانا شغبا تعرضت بسببه لعقوبة الجلد ، وقد زارتنى هدى مرة واحدة ..
فتساءلت باهتمام :
ـ هل انقطعت بعد ذلك ..؟
ـ انتقلت الى جوار ربها !
ثم واصل :
ـ حزنت جدا ، وقلقت على الأبناء جدا ، ثم أخبرنى

شكرون أن عمة والدتهم تكفلت بهم وأنهم سافروا اليها فى المنيا ليبقوا تحت رعايتها ولا شك أنهم نسونى سريعا كما نسيت أمى فى مثل سن أكبرهم ، وفى زيارة تالية أخبرنى محمد شكرون أنه سيقوم برحلة فنية فى شمال افريقيا فانقطعت أخباره عنى حتى اليوم ، مات جعفر الراوى ومات العالم الخارجى ..
واصلت الجهاد فى السجن داعيا الى مذهبى الجديد فاصطدمت بجهل وسلبية وسخرية ، حتى مأمور السجن دعوته ، وكان يعطف على لأصلى ومهنتى وسوء حظى ..
وفى السجن ضعف بصرى وأصبت بأمراض شتى .
وخرجت وحالى كما ترانى أمامك .

٨

خرجت وحالى كما ترانى أمامك ، خرابة من الخرابات ..

عجوز مريض نصف أعمى يحمل حفنة من الذكريات لا تصدق .

ولكنى لم أفقد صفاء الذهن ولا قوة الاصرار ولم ينطفىء فى قلبى سحر الآراء .

وقلت لو أعثر على محمد شكرون فقد أجد فيه الخيط الذى يوصلنى الى قلب الأشياء ، ولكنى لم أعثر له على أثر ، ولم أصادف أحدا يعرفه وكأنه لم يطرب بصوته جيلا من الناس ، وفى معهد الموسيقى الشرقى أخبرنى أحدهم بأنه ـ محمد شكرون ـ أقام فى المغرب ثم انقطعت أخباره .

وذهبت الى قصر الحلمية فوجدت مكانه عمارة شاهقة تملكها شركة تأمين ، وكنت قد ورثت عن زوجتى مبلغا محترما من النقود أنفقت أكثره فى السجن فى شراء السجائر وخلافه ولم يكد يبقى منه شىء ذو بال .

وذهبت أيضا الى عشش الترجمان ولكنى لم أجد لها أثرا ، لقد اجتاحها العمران فتحولت الى حى وبستان ومحطة بنزين .

وعثرت على زملاء غير قليلين ، بعضهم على المعاش وبعضهم ما زال يعمل فى المحاماة ، وأصارحك بأنه لم يتهرب منى أحد ، واستقبلنى بعضهم بحرارة ، منهم من لا يزالون على حماسهم الأول لعقائدهم ومنهم من شغلته الحياة ومطالبها .

ولكن أين أبناء مروانة وأين أبناء هدى ؟

وقررت أنه لا خير يرجى من الاهتداء اليهم وأننى يجب أن أتركهم دون ازعاج ، ويطيب لى أحيانا أن أتخيل حيواتهم وحياة أحفادى منهم ، أجل يوجد بينهم الآن قطاع طرق وقضاة ولعلهم أكثر مما أتصور ، ولعلى أصادفهم فى تخبطى فلا أعرفهم ولا يعرفوننى ..

ولما فرغت من هذه الأمور العاجلة فكرت فى امكان استئناف الجهاد فى سبيل مذهبى وتكوين الحزب ، غير أننى اصطدمت بعقبات ليس من اليسير تذليلها ، منها سنى الطاعنة وضعفى الشديد ، وسحنتى التى أصبحت تثير الرثاء بل وأحيانا الاشمئزاز .

ان الزعيم كما تعلم يجب أن يحوز شخصية ذات قوة وجاذبية معا ، فضلا عن ذلك فان ميدان السياسة حافل بالشخصيات ذوات الحيوية والتأثير فقلت أسجل نظريتى فى كتاب فان أعجزنى ذلك ولا بد أن يعجزنى فاننى سأدعو اليها حيثما أسير ، وقد يتبناها عنى شخص أقدر على نشرها وتحقيقها منى ..

عند ذاك بدا لى أنه لم يبق لى الا الراحة القهرية القصيرة التى تسبق الراحة الأبدية ··

★ ★ ★

ولاذ بالصمت مليا ثم تمتم بهدوء :

ـ طالعنى من الماضى وجه الراوى ··

هممت بالحديث ولكنه بادرنى قائلا :

ـ لم أكن أشـــك فى وفاته ، ولكن ما مـآل ثروته وقصره ؟ ·· ووقفت تحت سور القصر الشاهق وهو قائم كالجبل ، وتسللت الى العطفة نحو الباب الكبير فأدهشنى أن أجده مواربا ···

وصمت لحظات ثم قال :

ـ دفعت البـاب قليلا ودخلت فرأيت منظـــرا لم أتوقعه ، لم أتصوره ، لم يجر لى فى خاطر ، لا الحديقة هناك ولا الســـلاملك ، لا أخلاط العبـــير ولا زقزقة العصافير ، ولكن خرابة مترامية وأكوام من النفايات ونفر من الصعاليك ···

فهتفت مستغربا :

ـ كيف ·· هل هدم ؟

ـ لا شىء الا الخراب يحيط به جدار شاهق وباب عظيم ، ونظر الى الصعاليك بحذر وارتياب ، فضربت الأرض بقدمى ، ورحت أبحث عن أحد حى من مريدى جدى ، وفى أثنـاء بحثى وتجوالى علمت أن الراوى توفى بعد سجنى بعام واحد ، وبأنه أوقف ثروته كلها على الخيرات دون أن يخصص لى مليمـا واحدا ولا لأحد من ذريتى ، أما القصر فقـد ألقيت عليه قنبلة فى

احدى الغارات الجوية ثم أزيلت أنقاضه ، هــذه هى القصة كلها من أولها لآخرها ، وأدركت فى الحال أننى لن أظفر براحة فى الراحة القهرية القصيرة التى تسبق الراحة الأبدية ، ولكننى قــــررت أن أجعـــل بيتى فى الخرابة المتخلفة عن قصر جدى ، وأنى أنام فيها عادة ما بين الفجر والضحى كصعلوك من الصعاليك ·

وضحك ضحكة قصيرة ثم سكت وهو ينفخ ، فقلت برثاء :

ـ شيخوخة غير سعيدة ·

فهتف بكبرياء :

ـ كلا ، انى أرفض الرثاء والعطف ، تذكر دائمـا أنك تخاطب عظيما من الرجال ، ومن أسـباب عظمته السحرية أنه قادر على التـكيف مع أقسى الظـروف والأحوال فيخوضها بكل تعال وابتسام !

وآمنت بقوله ولكننى قلت :

ـ على أى حال فان الاعانة الشهرية التى ··

فقاطعنى بحدة :

ـ لقد اتخذت فيها قرارا !

ـ لم أظنك جادا فيما قررت ··

ـ ولكنى جاد كل الجد !

ـ أتعنى أنك لن تكتب الالتماس ؟

ـ قطعا !

ـ ولكنه الجنون عينه ··

ـ سمه كما تشاء ، لقد حرمنى الراوى من تركته وانى أرفض أن أتسول منها مليما واحدا !

ـ ولكنك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان ما تنفد النقود المتبقية لديك ••
ـ أعرف هذا حرفا حرفا ولكنى أعنـد من الراوى نفسه ••
ـ دعنى أكتب الالتماس بنفسى •
ـ انى أرفض •
ـ ولكن •••
ـ انى أرفض الكلام حول هذا الموضوع •••
وساد الصمت ، وكان التعب قد نال منه محدثا كما نال منى مستمعا ••
وتثاءبت فضحك قائلا :
ـ انى لا أتثاءب قبل الفجر ••
فتمتمت بفتور :
ـ عفارم •
ـ انى صعـلوك متجول ، أغادر خـرابة الراوى لأهـيم على وجهى فى الطـرقات ، من مرجـوش الى الخرنفش الى النحاسين الى خان جعفر ، فى كل مكان لى ذكرى ونجوى ، وفى الحلمية ذكريات ، وفى ميدان باب الخلق يخفق قلبى ، وفى كل مكان أدعـو دعـوة صريحة الى مذهبى ، أدعو البشرية الى انقاذ نفسها ••
ـ مذهبك ؟
ـ أجل ••
ـ علانية ؟ !
ـ أجل ••
ـ يجب أن تحذر المتاعب •

ـ انى لا أخشى المتاعب ••
وقلت لنفسى ان هيئته لا توحى بأى جدية فلا خوف عليه •
واستنمنا الى الصمت مرهقين •
وفى لحظة من التخدير والأسى انطلق صوت المؤذن يعانق أمواج الظلام •
وتمطى جعفر قائلا بصوته الرنان الخشن :
ـ آن لنا أن نذهب ••
سرنا جنبا الى جنب ، اخترقنا القبو الى الميدان •
وهمس جعفر :
ـ لتمتلىء الحيـاة بالجنـون المقدس حتى النفس الأخير •
وكان رأسى يطن بحديث الليل الطويل •